المكتبة الثقافية

١٤

الصحافة المصرية في مائة عام

الدكتور عبد اللطيف احمد حمزة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعـــرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

التخطيط القومى

للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص

المكتبة الثقافية

١٤

الصّحافة المصْرية في مائة عام

الدّكتور عبد اللطيف احمد حمزة

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والارشاد القومى
الإقليم الجنوبى
الإدارة العامة للثقافة

الناشر

دار القلم

المقدمة

طلبت إلى الإدارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي أن أضع لها كتابا عن الصحافة المصرية. فبادرت بإجابة هذا الطلب، وقصرته على مائة عام حرصاً مني على أن أقدم للقراء خلاصة طيبة لقصة الكفاح الذي كتب على صحافتنا منذ نشأتها إلى أن بلغت حدا لا بأس به من النضج والكمال، وأصبحت قدوة حسنة لما ينبغي أن تكون عليه صحافة الشعوب التي تستكمل حريتها واستقلالها، ومثلا يحتذى للصحافة التي تشارك بكل قوتها في بناء الأمم والأوطان.

ولقد بدا لي أن أقسم هذه السنوات المائة إلى أربع فترات سميت كل واحدة منها طورا، وتحدثت عن كل طور منها على حدة. على أن هذا التقسيم الذي لجأت إليه لا يعدو في الحقيقة أن يكون طريقا من الطرق التي يصطنعها الباحثون عادة لتيسير الموضوع على القراء، وإلا فإن حياة الصحافة المصرية سلسلة متصلة الحلقات، حلقة الطفولة فيها تتداخل في حلقة الشباب. وهذه الحلقة الأخيرة تتداخل في بقية الحلقات، بحيث يصعب

الفصل بينهما فصلا صحيحا بالأيام والسنوات .

(وبعد) فأنا أشكر إدارة الثقافة إذ أتاحت لى هذه الفرصة الجميلة، لكى أتحدث إلى القراء فى إيجاز عن تاريخ الصحافة المصرية، التى كتبت باللغة العربية، وأنا أعتذر إليهم ، وإلى أصحاب الصحف القديمة والحديثة، حيث لم أستطع أن أشير إلا إلى النزر اليسير من الجرائد المكتوبة بالعربية . أما الجرائد التى ظهرت فى مصر باللغات الأوروبية . فقد حال بينى وبين الإشارة إليها ضيق المساحة التى أرادتها الإدارة لهذا الكتاب . والله ولى التوفيق .

عبد اللطيف حمزة

الطورُ الأوّل
أو
"طورُ النشأة"

(من سنة ١٨٢٨ — إلى سنة ١٨٧٦)

الصّحافة والمطبعة

لم يكن للحضارة الحديثة من نعمة أجل من نعمة المطبعة، ولم يكن للمطبعة بعد ذلك من حسنة أفضل من الصحف والكتب .

ولقد قيل : إن الطباعة بالحروف العربية إنما دخلت مدينة القسطنطينية قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بنحو خمس وسبعين سنة ، أى أن الآستانه أسبق بلاد الشرق اتصالا بالمطبعة ، عرفتها على أيدى اليهود القاطنين بها ، وذلك فى غضون القرن الخامس عشر للميلاد .

ولقى إنشاء الطباعة بالحروف العربية مقاومة شديدة من رجال الدين فى مدينة القسطنطينية . فقد أفتى هؤلاء بأنها رجس من عمل الشيطان . ثم توسط بعض العلماء بعد ذلك لدى السلطان فأذن بإنشاء المطبعة العربية ، وقامت بطبع الكتب الدينية واللغوية .

وفى غير القسطنطينية من البلاد الإسلامية ، كانت توجد مطبعة فى مدينة (حلب) يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٢ ميلادية .

ومعنى ذلك باختصار : أن مصر كانت آخر بلاد الشرق معرفة بالمطبعة ، لم تعرفها إلا على يد الحملة الفرنسية . غير أن مطبعة الحملة خرجت من مصر بخروج الجند الفرنسيين منها .

على أنه وإن كانت مصر آخر بلاد الشرق اتصالا بالمطبعة ، إلا أنها كانت بفضل الحملة الفرنسية أول بلاد الشرق معرفه بالصحافة ، التى هى ثمرة من ثمرات المطبعة . غير أن الصحافة المصرية شىء ، والصحافة الفرنسية التى صدرت فى مصر شىء آخر . فلا يصح النظر إلى هذه الأخيرة على أنها مصرية صميمة ، وإن كان المؤرخ مضطرا إلى النظر إلى تلك الصحف التى أصدرتها الحملة على أنها نقطة البدء فى تاريخ الصحافة المصرية .

يقول الجبرتى فى تاريخه عن صحف الحمـــلة الفرنسية :

« إن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم ، وأماكن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش » .

الصّحافة الرسميّة

ولدت الصحافة المصرية فى حجور الحكام ، وعاشت على أموالهم ونمت وترعرعت بسلطانهم ، وخضعت لتوجيهاتهم ، ولم يكن لها بد من هذا الخضوع .

وتفسير هذه الظاهرة التاريخية بإيجاز : أنه منذ استقر الأمر لمحمد على فى مصر ، شرع يفكر فى تنظيمها ، وكان أمامه مثل واضح لهذا التنظيم هو المثل الذى جرى عليه الحكم فى أيام الحملة الفرنسية على مصر .

وكان من أخطر الأجهزة التى تألف منها نظام هذا الحكم جهازان كبيران :

أحدهما ـ خاص بدواوين الحكومة : وهى ما نعبر عنه اليوم باسم الوزارات .

ثانيهما ـ خاص بالصحافة : وهى يومئذ عبارة عن النشرات والدوريات .

وكما كان للفرنسيين كبير اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى دواوينهم ، وأماكن أحكامهم على حد تعبير الجبرتى ـ فكذلك بدا للوالى الجديد أن تكون له مثل هذه العناية بهذه الأمور .

ولا يكون ذلك - كما دلت عليه تجربة الجنرال بونابرت - إلا عن طريق الصحف .

ومن ثم نشأت فى مصر طائفة من الصحف الرسمية سنذكرها إجمالا على النحو الآتى :

جورنال الخديو :

فرغ محمد على من تنظيم الحكومة وإنشاء الدواوين فى سنة ١٨١٣ . فاحتاجت الشئون المالية والزراعية والتعليمية والعمرانية إلى أن يكتب لها ملخص ، أو تقرير يقدم إلى الوالى باسم « جورنال » .

وكان الوالى ينتظره مرة فى الشهر على الأقل ، ثم رأى أن هذه المدة أطول مما ينبغى ، فطلب أن يقدم إليه هذا التقرير كل أسبوع ، ثم أصدر أمره إلى المسئولين أن يكونوا مستعدين لتقديمه فى أى وقت يريده الباشا .

وأما الجهة التى يصدر عنها الجورنال فكانت تعرف باسم « ديوان الجورنال » . وأما المطبعة التى تطبع فيها هذه الصحيفة فهى « مطبعة القلعة » . وهى واحدة من مطابع تسع استطاع محمد على أن ينشئها فى مصر .

وأما ناظر التقارير - أو بعبارة أخرى رئيس التحرير - فهو رجل يدعى «محمود افندى» - كان من عمله أن يتلقى تقارير الأقاليم فى كل أسبوع، ثم يقوم بترتيبها وتنسيقها تمهيداً لعرضها على الباشا قبيل الطبع.

وأما عدد النسخ التى كانت تطبع من «الجورنال» فلم تكن تتجاوز المائة. وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية، ويشتمل على الأخبار الحكومية، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة بقصد تشويق القراء.

والخلاصة: أن هذه الصحيفة الرسمية التى هى أقدم الصحف المصرية على الأطلاق كانت خاصة بالباشا أو الوالى. وكان يسمح بأن يطلع عليها نفر قليل من كبار موظفى الحكومة. أما الشعب نفسه فلم يكن له بهذه الصحيفة صلة ما واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الجريدة الرسميه الثانية، فى تاريخ الصحافة المصرية وهى:

الوقائع المصرية:

أدرك الوالى أن من الخير أن يكون الشعب المصرى على صلة بأعمال الحكومة، ولاسبيل إلى ذلك بطبيعة الحال إلا بنشر

الجريدة الرسمية بين أكبر عدد ممكن من أفراد هذا الشعب المصرى.
وإذا ذاك استقر الرأى على توسيع نطاق الجريدة المعروفة (بجورنال الخديو) وإصدارها باسم جديد هى (الوقائع المصرية) فصدرت هذه الجريدة فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٢٨ (١٥ رجب عام ١٢٤٤). وكتب الوالى « إلى المديرين ورؤساء الدواوين بعمل خلاصة خصوصية، عن الوقائع التى تحصل بالجهات، وإرسالها إلى قلم الوقائع لطبعها وتوزيعها على الذوات الملكية والجهادية وتحصيل ما تقرر على ذلك من رسوم».

ومن ثم صدرت الأوامر العالية، بتوزيع الوقائع المصرية على أمراء البيت المالك وكبار الموظفين، وعدد كبير من العلماء ورجال الدين ثم فكر الوالى بعد ذلك فى أنه لا مانع من توزيعها على طلبة العلم فى مصر وأوربا بالمجان، لأن قراءة الوقائع بالنسبة إلى هؤلاء جزء من برنامج إعدادهم، ليكونوا موظفين صالحين فى مستقبل الأيام.

ثم صدرت الأوامر بعد ذلك أن توزع (الوقائع) على جميع موظفى الحكومة بلا استثناء، بشرط أن يدفعوا الاشتراك ما داموا يتقاضون ألف قرش أو أكثر فى الشهر.

وكان محمد على يشعر فى قرارة نفسه بأنه رئيس تحرير فعلى

لهذه الصحيفة ، والمسئول الأول عن كل ما ينشر فيها . وكان يوحى إلى كتابها ومحرريها بأن يخصصوا بها مكانا ممتازا لمدحه والثناء عليه لقاء سعيه فى إنهاض البلاد من جميع النواحى . وكانت الوقائع لا تنى فى الإشارة بأعماله ووصفه بالعدل فى الأحكام ، وكانت مقدمة الصحيفة (أو مقالها الأفتتاحى) هى التى تتضمن كل ذلك . واعتاد الباشا أن يراجع مسودات الصحيفة قبل ذهابها إلى المطبعة ، وكان يدقق فى كل خبر من أخبارها ، وباختصار قامت فكرة الوقائع على الدعاية الواسعة لمحمد على وجهوده فى سبيل الإصلاح والنهوض بالبلاد .

ولا شك أن الوقائع المصرية كانت تتألف من موضوعات أخرى فيما عدا الدعاية للوالى . ومن هذه الموضوعات — على سبيل المثال — البحوث العلمية التى احتاجت إليها مصر فى نهضتها الحديثة كالبحوث التى تتصل بالمال ، أو الزراعة ، أو الصناعة ، أو التعليم .

وفوق هذا وذاك وجدنا الوقائع تعنى بحسن توجيه الحكام ، وتصلهم بسياسة الوالى فى كل مرفق من المرافق العامة . ولم تنس الوقائع بالإضافة إلى كل ما تقدم أن تحرص دائماً على إذاعة

أنباء الجيش . وترقيات الضباط ، والإشادة بانتصاراتهم . ونحن نعرف الدور الذى لعبه الجيش المصرى يومئذ فى الحياة المصرية ، وفى تمكين مصر — كما يقول المؤرخون الأوربيون — من أن تظهر بمظهر الأمة القوية النفوذ ، الواسعة السلطان . ولا غرابة فى ذلك . فهذا الجيش هو الذى قضى على المماليك ، وفتح بلاد العرب ، وهزم الوهابيين ، وفتح السودان وكريت واليونان والشام ، وطرد الإنجليز من مصر سنة ١٨١٧ ، ومكن الوالى من أن يكون سياسة خارجية خاصة بإزاء الباب العالى من جهة والدول الأوربية من جهة أخرى .

أما أسرة التحرير فى هذه الجريدة الرسمية القديمة فمن أولها رجل يقال له (سامى بك) كان لا يجيد غير اللغة التركية . ثم رجل يقال له (الخواجا نصر الله) كان رئيس المترجمين فى الصحيفة . ثم رجال من الأزهر أحدهم الشيخ عبد الرحمن الصفتى كان عمله التحرير باللغة العربية .

وبقيت الوقائع على هذا النحو حتى قيض الله لها من جازوا بها دور الطفولة إلى أول مرحلة من مراحل الشباب وكان ذلك على يد شيخ الصحافة المصرية «غير منازع» رفاعة رافع الطهطاوى .

وذلك أنه فى أواخر سنة ١٨٤١ اجتمع مدير ديوان المدارس ومدير الإيرادات وآخرون. وفكروا فى سياسة جديدة للوقائع، ووقع اختيارهم على رفاعة الطهطاوى لتنفيذ هذه السياسة. وكان من الخطوط العامة لها ما يلى:

أولا — إضافة مادة جديدة إلى مواد الصحيفة — وهى مادة الأخبار الخارجية.

ثانياً — زيادة مادة أخرى كذلك وهى نشر القطع الأدبية التى يختارها المحرر من أمهات الكتب العربية الأدبية.

ثالثاً — العناية فى باب الأخبار الداخلية بما يأتى:

ا — أخبار الرتب والترقيات.

ب — أخبار القضايا والأحكام.

حـ — أخبار المساجد والمؤسسات الخيرية.

ء — بيان بمساحة الأراضى التى تزرع حبوبا.

هـ — بيان (بالابعاديات) التى ينعم بها الوالى على بعض الموظفين المجتهدين بالحكومة.

و — أسعار الغلال واللحوم ونحو ذلك.

ز — بيان بعدد العمال الذين يعملون فى الجسور والقناطر وما إليها.

ح — إشارة إلى الحوادث الغريبة أو غير المألوفة .

وأما جهة الإصدار فهى (قلم الوقائع) . وأما مواعيد هذا الإصدار فلم يكن لها حظ ما من النظام ، فحينا تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع ، وحينا تصدر مرة واحدة فى كل أسبوع ، وأحيانا يمر أسبوع واثنان دون أن يصدر عدد جديد . وأكثر من هذا وذاك ، أنه حدث أن انقطعت (الوقائع) عن الظهور خمسة أعوام كاملة .

وكانت لافتة الصحيفة فى أول عهدها بالظهور عبارة عن « زهرية » كتب تحتها اسم الصحيفة هكذا « وقائع مصرية » . ثم تخلصت الصحيفة من شكل الزهرية وجعلت مكانها شكل هرم كتب فى داخله عنوان الصحيفة على النحو المتقدم ، وأطلت من وراء الهرم نخلة ، وظهر فى الجانب الأيسر من هذا الهرم قرص الشمس .

وأما الصفحة الأولى فقد قسمت إلى عمودين كتب أحدهما باللغة التركية جهة اليمين والآخر بالعربية جهة الشمال . ثم حدث فى بعض الأعداد أن كانت بعض المواد تكتب باللغة العربية وحدها ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر التعصب لهذه اللغة على كل حال ، وكان فى

الوقت نفسه تمهيدا لتفرد اللغة العربية بتحرير الوقائع . وقد ساعد تفرد العربية بالتحرير فى هذه الصحيفة على زيادة المادة التى تقدمها للقراء ؛ فتوسعت الصحيفة إذ ذاك فى الأخبار الداخلية والأخبار الخارجية وبعض المواد الأدبية التى تفيد القراء .

والمهم بعد هذا وذاك أن يقال : إن صحيفة الوقائع المصرية عاصرت الصحافة المصرية فى الأطوار الأربعة التى سنتحدث عنها ، وأن ما قدمناه من حديث صحيفة الوقائع إلى الآن إنما يصف هذه الصحيفة فى أول طور من أطوار الصحافة . والآن فلننتقل إلى الصحيفة التالية وهى :

الجريدة العسكرية :

كانت الوقائع المصرية تعنى بأخبار الجيش وانتصاراته وحركاته ، ولكن هذه العناية لم تقنع الجيش المصرى فى ذلك الوقت ، ففكر فى أن تكون له جريدة خاصة به أطلق عليها اسم (الجريدة العسكرية) . وكانت الجريدة العسكرية تطبع بمطبعة « الجهادية » وبدأت فى الصدور منذ عام ١٨٣٣ ميلادية ، وتدلنا الوثائق على أنها كانت تختص بنشر الجرائم التى تقع فى الألايات ،

ونشر الأحكام التى توقع على أصحاب هذه الجرائم بالذات ، وانها كانت تصدر خمس عشرة مرة فى كل شهر ، ومع هذا وذاك فإن هذه الجريدة لم تعش طويلا لعدم الحاجة إليها .

* * *

ومضى عهد محمد على ، وتلاه عهد عباس الأول فسعيد . وفى عهدهما أصاب الحياة المصرية شىء كثير من الركود ، فأغلق ديوان المدارس ، وأغلقت المصانع والمعامل ، وفسد الجيش نفسه بدخول الجند الأرناءوط ، وبإيثار الوالى هذه الفئة الباغية التى حاول محمد على من قبل أن يتخلص منها . ومن ثم كان من الطبيعى أن تتوقف الوقائع المصرية عن الصدور وأن يقف دولاب العمل جملة فى المطبعة الأميرية .

وبقى الحال على ذلك حتى جاء إسماعيل فأصدر الأوامر الصريحة : « بأن تكون المكاتبات التى تتداول من الآن فصاعداً بكافة الدواوين والمصالح الأميرية مكتوبة باللغة العربية » . ويبدو أن الذى دفعه إليها هو كرهه الشديد للباب العالى والخلاف الذى نشب بينهما إذ ذاك .

وأما من حيث الجيش فقد أمر إسماعيل بإنشاء المدارس

التى تعلم الفنون الحربية . وعنى كذلك بالبعثات الحربية التى أرسلها إلى فرنسا وغيرها من البلاد الأجنبية ، وبعث فى طلب الضباط الكبار من أمريكا ؛ لتدريب الجيش المصرى على النظم الحديثة ، وعنى بأن يكون للجيش مطبعة ، وصحف ومكتبة .

وكما احتاج جده محمد على إلى كل من الوقائع المصرية والجريدة العسكرية ، فكذلك شعر إسماعيل بالحاجة الماسة إلى شىء من ذلك. فظهر فى عهده عدد لا بأس به من الصحف الرسمية . ومن أهم هذه الصحف على سبيل المثال : (صحيفة روضة المدارس) ، و (مجلة يعسوب الطب) ، و (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) .

وقد دأبت هذه الصحيفة الأخيرة على أن تقصر عنايتها على العلوم والفنون الحربية ، كما كانت مجلة (يعسوب الطب) تقصر عنايتها على العلوم الطبية ، وكانت كلتا الصحيفتين تنشران باللغة العربية لا التركية ، وكان يشرف على تحرير الصحيفة العسكرية منهما أحد أساتذة الأزهر المعروفين ، وهو الشيخ حسن الطويل ، وكان مدرسا للغة العربية بمدرسة دار العلوم .

وللأهمية الثقافية لمجلة (روضة المدارس) الرسمية أردت أن أخصها بكلمة موجزة .

مجلة روضة المدارس :

أنشأ محمد على ما سماه « بديوان المدارس » . وألحق بهذا الديوان قلما للترجمة . وأهمل هذا القلم فى عهد عباس وسعيد . فلما كان عهد إسماعيل اتجه إلى إحيائه من جديد وعهد به إلى رفاعه الطهطاوى ، وهو الرجل الذى وكل إليه الباشا أموراً كثيرة تتصل بالصحافة . منها أمر الإشراف على تحرير مجلة جديدة تدعى (بروضة المدارس) .

وصدر العدد الأول من هذه المجلة يوم السبت السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠ ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، ويطبع من كل عدد ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد إلى سبعمائة ، « وكان يكتب فيها من ينتخبون لذلك من ذوى المعارف ، وينشرون فيها ما يستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية وتوسيع دائرة الأفكار » .

وأما من الناحية الإخبارية فكانت روضة المدارس تعنى دائماً بأخبار امتحانات الطلبة فى مختلف المدارس ، وما كان يقال فى هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية وأخرى ختامية ، وكلها ثناء على الخديو أو الباشا لتشجيعه لحركة انتشار المدارس .

والحق لقد كانت (روضة المدارس) أول مجلة مصرية تعنى بالعلوم والآداب فى البلاد . ومن هذا كانت أشبه شىء بمجلة من المجلات التى تصدر عن بعض كليات الجامعة فى الوقت الحاضر . فكما أن المجلة العلمية مقصورة على الأساتذة الذين ينشرون فيها أبحاثهم وآراءهم، فكذلك كانت روضة المدارس مجالا لنشر هذه الأبحاث والآراء من جانب الأساتذة الذين ينتدبهم ديوان المدارس لمثل هذه المهمة ، وبعبارة أخرى كانت هذه المجلة التى نتحدث عنها معرضا للكتب التى يقوم بتأليفها الأساتذة والعلماء فى مختلف العلوم والفنون . وكان كل واحد من هؤلاء الأساتذة أو العلماء ينشر كتابه فصلا فصلا بحيث إذا جمعت هذه الفصول فى النهاية تألف منها الكتاب المطلوب فى الطب أو الهندسة أو الجغرافيا أو التاريخ أو الكيمياء أو الفلك أو النبات أو الأدب والإنشاء أو الألغاز والأحاجى والنوادر ونحو ذلك .

وكانت مجلة روضة المدارس تفتح صدرها أحيانا لنجباء الطلبة كى يكتبوا فيها بعض موضوعات إنشائية على سبيل

٥

التشجيع . ومن الشبان الذين أشر لهم موضوعات فى المجلة الشاعر المصرى المعروف إسماعيل صبرى. وباختصار كانت هذه المجلة أدبية علمية ثقافية ولا صلة لها مطلقا بالأمور السياسية والاجتماعية .

الصّحافة الشعبيّة

أو شبه الرسمية

رأينا كيف بدأت الصحافة فى مصر بداية غريبة كل الغرابة . فقد كانت تتألف من الصحف الفرنسية التى أصدرتها الحملة الفرنسية ، ثم خرجت هذه الحملة وتلاها محمد على فاستطاع هذا الأخير أن يبدأ الصحافة الرسمية المصرية بالمعنى الصحيح.

وهذا الذى يقال عن الصحافة الرسمية يمكن أن يقال مثله على وجه التقريب عن الصحافة الشعبية . فقد بدأت هى الأخرى بداية غريبة كل الغرابة . بدأت « بصحيفة السلطنة » التى ظهرت سنة ١٨٥٧ وكانت لسان حال السلطان العثمانى تدافع عن مصالح السلطان السياسية ، وهى المصالح التى قضت يومئذ بمحاربة سعيد ؛ لأنه الوالى . الذى أصدر لائحة يقال لها « اللائحة السعيدية » أصبح بها الفلاح المصرى مالكا للأرض التى يزرعها ، وألغى سعيد كثيرا من الضرائب التى أثقلت كاهل هذا الفلاح المصرى ، وقضى على نظام الاحتكار . ولم يقف سعيد عند هذا الحد من حدود الإصلاح حتى أخذ يحارب الارستقراطية التركية فى داخل

الجيش المصرى ، ويعود إلى استخدام المصريين ، ويسعى سعياً حثيثاً فى أن يحتفظ لهذا الجيش بنقاوته من العناصر الأجنبية .

وعلى قدر ماقرَّبت هذه الأعمال سعيداً من قلوب المصريين، باعدت بينه وبين السلطان العثمانى فى ذلك الحين . فلم يجد هذا السلطان بداً من أن يسلك طريق الدعاية ضد هذا الوالى . ومن ثم فكر فى نشر هذه الجريدة الشعبية التى أشرنا إليها . والعجيب أنه بينما فطن السلطان العثمانى لخطورة هذا السلاح العظيم — وهو سلاح الصحافة والدعاية — إذا بسعيد صاحب هذه النهضة الاجتماعية التى توشك أن تكون انقلابا فى حياة المصريين، لم يفطن إلى شىء من ذلك ، بل تراه — فوق ذلك — يغض النظر عن الصحف المصرية الرسمية التى بدأها جده محمد على لهذه الغاية نفسها ، وهى الدعاية فلم يشجع على استمرار الوقائع المصرية ، ولم يفكر فى إنشاء جريدة أخرى من الجرائد الرسمية . ولا خطر على باله أن يعدل عن الصحافة الرسمية إلى الصحافة الشعبية .

* * *

واستمر الحال على ذلك حتى أتى (اسماعيل) فكان حاكما من طراز غير الطراز الذى عرف به (سعيد) . كان يؤمن

بالدعاية إيمانا جل عن الوصف ، وكان يؤمن بالصحافة كما لم يؤمن بها حاكم فى زمانه فى الشرق، وكان شديد الولع كذلك باحتذاء الأوربيين فى كل صغير وكبير من الأمور أراد أن يقلدهم فى نظام الحكم ، وفى مظاهر التحضر والتمدن ، وأراد أن يقلدهم فى ميدان الثقافة والتعليم . وبدا للناس رجلا يرى التقليد غاية فى نفسه وليس وسيلة إلى الأغراض السياسية التى كان يهدف إليها. فإذا كان لأوروبا مجالس نيابية فلا بأس من أن يكون لمصر مجالس نيابية ، ولو لم تكن حقيقية . وإذا كان لأوروبا صحافة شعبية إلى جانب الصحافة الرسمية فلا بأس من أن تكون لمصر صحف شعبية ، ولو كانت فى حقيقة الأمر صورة دقيقة من الصحف الرسمية .

وهكذا اقترن ظهور الصحافة الشعبية فى مصر بظهور اسماعيل ، وهو الرجل الذى أحاطت به ظروف سيئة بسبب الديون التى تورط فيها وأصبحت سبباً فى تدخل الدول الأوربية فى شئون مصر الداخلية ، ووقوعها تحت رقابة مالية مشتركة بين انجلترا وفرنسا .

فى ذلك الجو الملبد بالغيوم فكر إسماعيل فى أن ينشىء فى مصر صحافة شعبية بالاسم رسمية بالفعل . وحاول أن يعتمد

عليها فى الدفاع عنه وعن سياسته ضد السلطان العثمانى من جهة ، وضد الدول الأجنبية من جهة ثانية . ونسى إسماعيل أن الصحافة الشعبية سلاح ذو حدين ، أما أحدهما فيمكن تصويبه نحو أعدائه ممن ذكرنا ، وأما الآخر فلابد من تصويبه نحو اليد التى صنعته ولو كان ذلك بغير قصد منه .

* * *

أما تلك الصحف الشعبية التى ظهرت على يد اسماعيل فكانت على ضربين :

أولهما — الصحف الشعبية التى تولتها أقلام مصرية وعقول مصرية .

وثانيهما — الصحف الشعبية التى تولتها أقلام سورية وعقول سورية .

ومن الأمثلة على الضرب الأول :

صحف وادى النيل ، ونزهة الأفكار ، وروضة الأخبار ، والوطن .

ومن أمثلة الضرب الثانى :

صحف الأهرام ، ومصر ، والتجارة ، والمحروسة .

ولا بأس أن نقف وقفات قصيرة عند صحف الضرب الأول

وأخرى عند صحف الضرب الثانى. وبذلك نعطى للقارىء صورة من صحافة مصر الشعبية فى طورها الأول وهو طور النشأة.

* * *

صحيفة وادى النيل :

قلنا إن إسماعيل سلك فى محاربته التدخل الأجنبى طريقين هما : مجلس شورى النواب الذى تم تأسيسه عام ١٨٦٦. والصحافة الشعبية التى بدأت بصحيفة وادى النيل. وصدر العدد الأول فى يولية سنة ١٨٦٧.

من أجل ذلك، أوحى إسماعيل إلى عبد الله أبى السعود بإنشاء جريدة وادى النيل، وكان عبد الله أبو السعود موظفا من موظفى الدولة، تخرّج فى مدرسة الألسن على يد أستاذه رفاعة رافع الطهطاوى، وعين فور تخرجه فى قلم الترجمة الذى أعيد إنشاؤه فى عهد إسماعيل، ثم أصبح ناظراً لهذا القلم عقب وفاة أستاذه رفاعة. وكان فى الوقت نفسه أستاذاً لمادة التاريخ بمدرسة دار العلوم، وأستاذاً لمادة الترجمة فى مدرسة الألسن.

على أن هذه الصحيفة الشعبية الأولى كانت صورة دقيقة من الصحيفة الرسمية القديمة، ونعنى بها الوقائع المصرية.

ووادى النيل جريدة شعبية علمية أدبية سياسية أسبوعية، تصدر مرتين فى كل أسبوع، وكانت تطبع بمطبعة شعبية مقرها «حارة كوم الشيخ سلامة بالموسكى» بمدينة القاهرة.

وأما موادها الصحفية فلم تكد تخرج فى مجموعها عما يلى:

١ – الحوادث الداخلية – أو – أخبار الأسبوع.

٢ – مجلس شورى النواب المصرية، وأخبار هذا المجلس منقولة بالنص عن صحيفة الوقائع الرسمية.

٣ – إعلانات عن الصحف الجديدة التى تصدر بمصر والشام، أوغيرهما من أقطار العالم الإسلامى.

٤ – وريقات وادى النيل وهى: عبارة عن صفحة الإعلان عن المطبوعات الجديدة، والمنشورات المفيدة. وفى هذه الصفحة كان يعلن رجال العلم والأدب عن كتبهم الحديثة.

٥ – بعض فصول من الكتب الأدبية، والتاريخية القديمة. ولعل أول كتاب عنيت بنشره صحيفة وادى النيل هو كتاب رحلة ابن بطوطة.

٦ – مادة الزراعة.

صحيفة نزهة الأفكار :

وهى صحيفة شعبية ، اشترك فى إصدارها أديبان كبيران هما : ابراهيم المويلحى وعثمان جلال . وذلك سنة ١٨٦٩ ، وكانا يظنان أنهما يستطيعان أن يتمتعا فيها بالحرية الصحفية الصحيحة ، وأن يكونا فى حل من نقد الحكومة ، وأن يقوما فى الوقت نفسه بالغرض من إنشائها كذلك ؛ وهو الدفاع عن سياسة إسماعيل ضد عدويه الكبيرين ، وهما الدولة العلية ، والدول الأوروبية .

ولكن بالرغم مما لقيته هذه الصحيفة من عطف الخديو وبره وتشجيعه ، وبالرغم من الطابع الأدبى الذى امتازت به إذ ذاك ؛ فإنها احتجبت عن الظهور بعد قليل لإسرافها فى التجديد واستمساكها بالحرية التى لم تكن ملائمة للظروف المحيطة بمصر فى ذلك الوقت .

صحيفة روضة الأخبار :

وصاحبها « محمد أفندى أنسى » وهو ابن الصحفى السابق الذكر عبد الله أبى السعود أفندى . ظهرت عام ١٨٧٥ — وهو العام

الذى شهد ميلاد صحيفة من أهم الصحف المصرية — وهى صحيفة الأهرام .

وامتازت الفترة التاريخية التى ظهرت فيها هاتان الصحيفتان بهدوء سياسى استراح فى أثنائه المصريون بعض الشىء ، وكانت الثورة العرابية تخفى أشراطها ، ولا يكاد يوجد فى مصر من يتنبأ بنشوبها .

وصحيفة روضة الأخبار « صحيفة مصرية معدة لنشر الإعلانات الخصوصية والعمومية ، زراعية ، ومالية ، وتجارية » وكانت تتألف من أربع صفحات موزعة عليها المواد على النظام الآتى :

١ — مادة للإعلانات الرسمية .

٢ — ومادة للأخبار الداخلية .

٣ — ومادة عنوانها (تذييل روضة الأخبار) تشتمل على قصة مترجمة من الفرنسية إلى العربية وتنشر على مرات متتالية .

٤ — ومادة بعنوان (توجيهات وتعيينات) .

٥ — ثم مادة الإعلانات على نحو ما تفعل صحيفة وادى النيل تماماً .

الطور الثاني
من أطوار الصحافة المصرية
"طور الشباب"

(من سنة ١٨٧٧ — إلى سنة ١٨٨٢)

اقترن الطور الثانى من أطوار الصحافة المصرية — وهو طور الشباب — بظهور طائفة من الصحف أولاها الأهرام والوطن ولنتحدث أولا عن هذه الأخيرة :

جريدة الوطن :

وهى جريدة سياسية أسبوعية صدرت عام ١٨٧٧ لمحررها «ميخائيل أفندى عبدالسيد»

ولهذه الصحيفة المصرية كما لزميلاتها من الصحف السورية التى ظهرت بالديار المصرية ، ظرف يخالف الظرف الذى نشأت فيه الصحف الشعبية التى تحدثنا عنها من قبل.

وخلاصة هذا الظرف الأخير ، أن الحرب نشبت بين تركيا وروسيا . وكانت الصحف المصرية قبل نشوب هذه الحرب ممنوعة من الخوض فى الأمور السياسية ، ومحظوراً عليها أن تنقل شيئاً من هذه الأخبار عن أية صحيفة أجنبية ، فلما قامت هذه الحرب الروسية التركية انطلقت صحف الشعب تخوض فى الحديث عنها وتعنى بتفاصيلها ، وتنقسم فى ذلك فريقين : فريق يظهر الإعجاب بأبطال الترك — كما فعلت جريدة مصر لصاحبها أديب إسحق ، وفريق يظهر الإعجاب بأبطال الروس — كما فعلت جريدة الوطن . لصاحبها ميخائيل عبد السيد . .

وكان على مصر أن تقدم العون فى هذه الحرب لتركيا ، ولكنها لم تكن فى حالة مالية طيبة تساعدها على تقديم المعونة . من أجل ذلك وقفت الحكومة المصرية موقف التغاضى عما تثيره الصحافة المصرية من أحاديث حول هذه الحرب التى نشبت بين الترك والروس . وتلك هى المرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث التى سمح فيها الوالى للصحف المصرية بالخوض فى الشئون السياسية . ومن ثم كان فضل الحرب الروسية التركية على الصحافة المصرية عظيما وأثرها كبيراً فى تحويلها إلى صحيفة جديرة باسمها متمتعة بحريتها على هذا النحو .

ومن الأمور السياسية التى خاضت فيها الصحف الوطنية المصرية أمر تعيين أول وزارة مصرية برياسة نوبار — وهى الوزارة التى عرفت فى تاريخنا الحديث باسم الوزارة المختلطة ؛ لأنها كانت تتألف من وزراء منهم اثنان أجنبيان أحدهما : فرنسى والآخر : إنجليزى . وقد رأينا صحيفة الوطن تستقبل هذه الوزارة استقبالا حسنا ، وتتفاءل خيراً بقدومها وتصفها بأنها الوزارة المسئولة التى ستصلح ما أفسدته العهود السابقة وترفع الضرائب عن كاهل الفلاح !

والعجب فى ذلك من أن التيار قد جرف الصحافة الوطنية

إذ ذاك واضطرها إلى أن تكيل الثناء للوزيرين الأجنبيين !! ومع هذا فقد أثبتت الأيام أن وزارة نوبار هذه لم تفلح فى إصلاح شئون البلاد ولم تحقق أملا من آمال ميخائل عبد السيد !! ..

غير أن لهذه الجريدة الشعبية الصميمة «وهى جريدة الوطن» مواقف محمودة فى مجال الشورى ؛ لأنها الصحيفة التى وقفت تدافع عن النواب المصريين دفاعاً مجيداً ، وقد اضطرت من أجل ذلك إلى أن تغير من خطتها الأولى وتعود إلى مهاجمة الوزيرين الأجنبيين، فاستبدلت بالثناء عليهما نقداً وذماً وتجريحاً لهما. وبلغت فى ذلك مالم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف الشعبية باستثناء جرائد أديب إسحق .

وندع الصحف المصرية جانباً ، وننظر فى بعض الصحف التى قام على نشرها السوريون فى مصر فى ذلك الحين ومنها :

- جريدة الأهرام :

فرّ من السوريين من فرّ إلى مصر ليتمتعوا فيها بحرية نسبية ، وينجوا بأنفسهم من ظلم الولاة العثمانيين الذين كانوا يشهرون عليهم سلاح القانون المخيف ــ قانون المطبوعات .

وكان من أولئك السوريين شاب يدعى (سليم تقلا) شوهد

فى نظارة الخارجية وهو يطلب الإذن له بإنشاء مطبعة تسمى (مطبعة الأهرام) بمدينة الإسكندرية بجهة يقال لها (المنشية). كما طلب يومئـــذ أن يؤذن له بطبع جريدة (الأهرام). وقال إنه سيقصرها على البرقيات التجارية والعلمية، وينشر فيها نتفا من الكتب الأدبية العربية، وبعض قصائد من الشعر.

واشترطت نظارة الخارجية على صاحب الأهرام ألا يخوض فى السياسة بحال من الأحوال، وبقى الحال على ذلك حتى قامت الحرب الروسية التركية — وهى الحرب التى قلنا إنها فتحت الباب على مصراعيه أمام الصحافة المصرية، لكى تخوض فى الأمور السياسية بقدر كبير من الحرية. غير أن الأهرام بالغت فى استخدام هذا القدر من الحرية حتى تعرضت للإنذار من جانب الحكومة المصرية فقد حذرتها هذه الحكومة مرارا من كتابة المواد المهيجة للخواطر العامة. ثم تظهر فى الأفق المصرى غيوم تكفهر لها سماء مصر فى عهد اسماعيل، وتخوض الأهرام هذه المعركة، وتأخذ فى معارضة الخديو معارضة سافرة[1]؛ بل تقف فى جانب فرنسا

(١) من ذلك أن الأهرام وصفت الخديو بأقذع الصفات وقالت عنه إنه صرف مائة ألف جنيه من دم الفلاح وأنه يمثل هذه التصرفات السيئة يفضى بالبلاد إلى الهاوية.

فى أثنائها بطريقة واضحة، فتضطر الحكومة إلى إغلاق الأهرام ، ويضطر صاحبها إلى إصدار جريدة أخرى هى (صدى الأهرام) ثم تأمر الحكومة بإغلاق هذه الجريدة الأخيرة ، وأخيراً تسمح بالإفراج عن الأولى . وذلك بفضل المساعى التى بذلتها القنصلية الفرنسية لدى الحكومة المصرية . وهكذا تبدو حياة (الأهرام) فى طورها الأول حياه كفاح من أجل الوجود ومن أجل الحرية وتظهر فى أثناء ذلك جرائد أخرى هى جرائد مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد . وهى جرائد اشترك فى إصدارها كل من سليم النقاش ، وأديب اسحق . إبتداء من سنه ١٨٧٧ وهى السنة التى صدرت فيها مصر وسنة ١٨٧٨ وهى السنة التى صدرت فيها التجارة وسنة ١٨٨٠ وهى السنة التى صدرت فيها كل من العصر الجديد والمحروسة .

وشاركت الصحف كلها فى المعركة السياسية التى بدأت بالحرب الروسية التركية ، وهى المعركة التى جعلت من الصحافة المصرية صحافة رأى — أو على الأقل — فى سبيلها لأن تكون صحافة رأى وقد كان لهذه الصحف السورية على اختلافها — ونخص بالذكر منها صحيفة التجارة — مواقف عظيمة تذكر لها بالثناء ومنها الموقف الذى وقفته من الأجانب

الأوربيين المقيمين فى مصر . فقد أوحى هؤلاء الأجانب إلى بعض الصحف الأوربية التى تصدر فى مصر بأن تشوه من سمعة النواب و بعض الشخصيات المرموقة فى البلاد وتتهمهم بالرشوة فتصدت التجارة — ومعها زميلاتها من الصحف السورية — للرد على تلك الصحف الأجنبية حتى أسكتتها .

واختفى الكثير من هذه الصحف السورية ، وبقيت صحيفة واحدة من هذه الصحف فقط هى (الأهرام) وذلك بالرغم من أنها كانت ضالعة مع القنصل الفرنسى . فما السبب فى ذلك يا ترى؟ أكبر الظن أن هذه الجريدة السورية القديمة ؛ وهى الأهرام كانت لها من المقومات الذاتية ما ضمن لها البقاء ، ومن عناصر القوة ما كفل لها الازدهار والنماء . وربما كان من هذه المقومات - على سبيل المثال - عنايتها بالبرقيات الخارجية ، واستكتابها لكبار الشخصيات فى البيئة المصرية ، ومنها شخصية محمد عبده . ثم منها كذلك - أى من هذه المقومات - « الحس الصحفى » الدقيق الذى تميز به صاحبا الأهرام . وكانا من أجله يشاركان العمال فى المطبعة ، ويقومان على تنسيق الصحيفة بنفسيهما ، ولا يكلان هذا الأمر لغيرهما من المحررين والعمال . وإن ننس لا ننسى كذلك الدهاء والذكاء اللذين امتاز بهما صاحبا الأهرام ، وبهما كانا يخرجان

من المآزق العديدة التى تعرضت بسببها الأهرام كثيرا للتعطيل والإلغاء .

نعم تمتاز صحيفة الأهرام إلى يومنا هـــذا بالمرونة السياسية . حسبها هذه الصفة الأخيرة لـكى تبقى على الدهر هذه المدة الطويلة ، ولـكى تخلد فى مصر خلود « الأهرام » التى بناها الفراعنة القدماء واختارتها الصحيفة لتـكون عنوانا لها ولمطبعتها إلى اليوم !

رأينا كيف كانت الصحف الشعبيـــة فى أول أمرها صورة دقيقة من الصحف الرسمية . فلا حظ لها من حرية القول أو النقد ، ولا أمل لها فى أن تـكون صحافة رأى . وبقيت الصحف الشعبية على هـــذا النحو حتى نشبت الحرب الروسية التركية . فبدأت تشب قليلا عن الطوق ، وتخوض فيما كان محظورا عليها أن تخوض فيه من الـكلام فى الموضوعات السياسية .

نعم — كان من صالح الحـكومة المصرية فى أثناء تلك الحرب أن ترخى الحبل للصحافة لتتمرن على القفز أو العدو وبالفعل أرخت الحـكومة للصحافة من الحبل ولـكنها بقيت تمسك بطرفه ولا تسرف فى بسطه كل البسط .

* * *

ثم ما كادت الصحافة الشعبية تجتاز تلك المرحلة ، حتى وجدت نفسها تظفر فى كل يوم بقدر لا بأس به من حرية القول ؛ وهو قدر وصل فى كثير من الأحيان إلى حد التطاول على ولى الأمر!!

ولنا أن نمد القارىء ببعض الأمثلة من هذه الحرية التى تمتعت بها الصحف الشعبية فى بداية هذا الطور الثانى الذى نتحدث عنه :

فهذه صحيفة (مرآة الشرق) [1] لمحررها (إبراهيم اللقانى) تصف فساد الحال فى مصر ، وتبحث عن أسباب هـذا الفساد فتصرح بأنها ترجع إلى أمراء البيت المالك وجهلهم بواجباتهم نحو وطنهم ، وسوء تدبيرهم ، واختلال أحوالهم « لا يعرفون شرعا ، ولا يرضون قانونا ، ولا يسمعون رأيا ، ولا يقبلون نصحا ، بل تعدوا الحدود وانتهكوا المحارم ، وثلموا الأعراض وحاربوا العدل ، فطغوا وبغوا ، ونهبوا وسلبوا ، وفتكوا وهتكوا .... شادوا القصور ، وغرسوا البساتين ، واقتنوا الحور والولدان ... وتأنقوا فى المآكل ، وتفننوا فى المشارب ، وزينوا الملابس وسحبوا مطارف العجب والخيلاء . وأفراد الرعية على

(١) جريدة سياسيه علميه أدبيه تصدر بالقاهرة يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع . وصاحبها سليم عنجورى الدمشق . ومحررها ابراهيم اللقانى .

مرآى منهم حفاة عراة يتضورون جوعا ، ويتلظون ظمأ ، ويموتون من البرد (١) .

ثم هذه جريدة (مصر) وهذه زميلتها (التجارة) — وكان يحررهما سليم النقاش وأديب إسحق ، أما أولاهما فتدافع دفاعا مجيداً عن كرامة المصريين الذين لا يعاملون معاملة الأجانب المقيمين معهم فى بلادهم . وأما الأخرى فتهاجم قانون المطبوعات وتعجب كيف أن هناك إدارتين ، واحدة منهما للصحف الأجنبية والأخرى للصحف الوطنية ، ولكن البون شاسع بينهما فى معاملة الصحف .

فى ذلك الوقت كان السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر يبذر بذور الثورة الفكرية ، ويغرس فى نفوس المصريين حب الحرية والنخوة الشرقية فتأثر الصحفيون بتعاليم السيد جمال الدين الأفغانى كل التأثير،وظهر ذلك فى الصحف التى صدر الكثير منها بوحى هذا الرجل فى ذلك الحين .

وأنظر إلى أديب أسحق فى جريدة مصر وهو يقول : فى

---

(١) ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٩٨ — نقلا عن صحيفة مرآة الشرق بتاريخ ٢٨ من أبريل ، تاريخ أول مايو سنه ١٨٧٩ .

الامتيازات الأجنبية : « لا ريب فى أن امتياز بعض الناس عن بعض فى وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسًّا ومعنى ... وقد حان لهذه البلاد أن تنتعش من عثرتها . وتفلت من ربقتها... » الخ هذه العبارات التى استفز بها الشعب المصرى ضد هذه الامتيازات الأجنبية ، وما أشبه هذه العبارات بما كان يردده السيد جمال الدين الأفغانى فى هذا المعنى .

وفى صحيفة (مصر القاهرة) كتب أديب إسحق أيضاً يقول فى وصف خطته التى سينتهجها نحو الحكومة المصرية : « ... سأكشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح ، متجافيا عن التعريض والتلميح ، وأجلو آراء ذوى النقد ، وأبين نقائض أهل الحل والعقد ، وأوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الأمة) ، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا (ولاة النظام) ،

« وقصدى من ذلك أن أثير بقيه الحمية الشرقية ، وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحي الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليستصغروا الأنفس والنفائس،

فى جنب حقوقهم ، فمن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك فهو سعيد » .

هكذا بلغ أديب إسحق فى جرأته على الحكومة فى عهد رياض إلى هذا الحد ، لأنه كان قد نفى من مصر إلى باريس ، وهناك شعر هذا الأديب بمطلق الحرية فيما يريد .

* * *

وهنا نرجع بالتاريخ خطوة واحـــدة إلى الوراء فنسمع بعزل اسماعيل وقد كان لهـــذا النبأ رنة فرح عظيم فى جميع الصحف الشعبية على اختلافها ، وأخذت هذه الصحف تحمد الله على عزله ، وتبشر البلاد بعهد جديد يكون أساسه الشورى ونصرة الحق ، وإباحة الحرية ، وتعليم الشعب ، والإكثار من المرافق الخيرية ، وتمهد كل هذه الظروف لنشوب الثورة العرابية فتبلغ هذه الثورة بالصحافة الشعبية آخر الشوط وحسبنا هنا أن نسوق مثلا واحدا على ما نقوله .

كتب النديم فى أثناء الثورة العرابية مقالا نشره فى السادس من شهر مايو سنة ١٨٨٢ بجريدة (الطائف) وعنوان المقال « سلب الأملاك من الملاك » هاجم فيه اسماعيل واتهمه بأنه هو الذى حرم الناس أملاكهم ، واستأثر بأرزاقهم . ثم مرض

النديم فى أثناء ذلك ، فأتم المقال ، وأرسل يعتذر عن تحرير باقى الجريدة إلا ما كان خاصاً بتاريخ اسماعيل باشا « فإنى أكلف بكتابته لأن نشره علاج لما بى » !

وندع الحديث عن الحرية التى تمتعت بها الصحف الشعبية ، وننظر فى المهم من تلك الصحف التى ظهر بعضها فى طور النشأة وأدرك الطور الذى تلاه ، وقد شهد هذا الطور طائفة من كبار الصحافيين الذين تفخر بهم مصر ومن هؤلاء على سبيل المثال :

١ — الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — وقد اشترك فى تحرير (الوقائع المصرية) . كما اشترك فى تحرير (الأهرام) . وتعاون مع أستاذه جمال الدين الأفغانى فى باريس على إصدار مجلة (العروة الوثقى .

٢ — ومنهم الشاب السورى المتوقد الذكاء (أديب اسحق) وقد شارك فى تحرير صحيفة مصر ، وصحيفة مصر الفتاة ، وصحيفة مصر القاهرة التى أصدرها فى باريس كما قلنا .

٣ — ثم منهم السيد عبد الله النديم ، وقد أصدر صحيفة (التنكيت والتبكيت) وصحيفة (الطائف) وصحيفة (الأستاذ)

٤ — ثم منهم صاحب الأهرام .

٥ — ومنهم كذلك الكاتب الإسرائيلى الذائع الصيت

(يعقوب بن صنوع) صاحب الصحيفة الهزلية المعروفة « بأبي نظارة » .

وشاءت الظروف أن يكون هؤلاء جميعا بدون استثناء تلامذة أوفياء للسيد جمال الدين الأفغانى : نفخ فيهم الرجل من روحه ؛ وأوحى إليهم بإصدار كثير من الصحف التى طلعوا بها على الناس .

ثم جاءت الثورة العرابية نفسها ثمرة لهذه الحركة ، فقامت على النحو الذى يعرفه التاريخ ، وكانت عاملا آخر من عوامل النهضة الصحفية . ولو نجحت هذه الثورة لتغير وجه الصحافة المصرية والحياة المصرية تغيرا لا تعلم مداه .

الوقائع المصرية والأستاذ الإمام :

بدأ الشيخ محمد عبده يكتب فى الوقائع المصرية من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٠ ، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت الوقائع للناس بمظهر جديد وأصبحت منبراً من منابر الرأى العام يلقى من فوقه ذوو العلم والخبرة كثيراً من آرائهم فى ميدان الإصلاح الاجتماعى والإصلاح السياسى . وكانت طبيعة هذا الشيخ أدنى إلى الاعتدال كما كانت عقليته تطورية أكثر منها ثورية . ومن هذه الناحية

الأخيرة فقط يأتى الفرق بينه و بين أستاذه جمال الدين الأفغانى .

يدلنا على ذلك مقال للشيخ محمد عبده نشره فى الوقائع بعنوان (خطأ العقلاء) قال فيه :

« إن كثيراً من ذوى القرائح الجيدة إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالها الحاضرة فتولد فى عقولهم أفكار جليلة ... ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذى وصلوا إليه أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، قريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، فيطلبون من الناس أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون فى أن يكون نظام الأمة وناموسها العام طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين .

« تلك ظنونهم التى تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات .. لكنهم أخطأوا خطأ عظيما لأنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التى يريدون إرشادها ولم يختبروا قابلية الأذهان واستعدادات الطبائع للانقياد إلى نصائحهم الخ » .

وبقيت مقالات الأستاذ الإمام هادئة كهدوء الشمس ، محصورة فى المجال الاجتماعى البحت ، حتى قامت الثورة العرابية

فتحولت مقالاته إلى سياسية ، وظل فى هذا الاتجاه الجديد إلى أن نفى من البلاد المصرية عقب الثورة العرابية ، ورحل إلى باريس حيث التقى بأستاذه الأفغانى من جديد . وهناك اتفق الرجلان على إصدار العروة الوثقى :

الأستاذ الإمام والعروة الوثقى :

وكان لهذه الصحيفة الخطيرة أهداف تنحصر فيما يلى : —

أولا — إفهام الشرقيين جميع الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وبيان الطرق التى يسلكونها لإدراك ما فات .

ثانياً — إفهام الشرقيين كذلك أن الأمل فى النجاح قريب ولا داعى فى بلوغ ذلك إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب الفتور ويحط من العزائم .

ثالثاً — دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها الآباء والأسلاف . فلا يصح آخر هذا الأمر (يريد أمر الدين) إلا بما صلح به أوله .

والمثل الأعلى للمسلمين فى نظر العروة الوثقى هو ما كان عليه الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين .

رابعاً — إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون فى مضمار الحياة ماداموا متمسكين بدينهم لأن دينهم فى نظر من لا يفهمونه من الأوربيين يدعو إلى التواكل .

خامساً — تقوية الروابط بين الأمم الشرقية وتأييد المصالح المشتركة بينهم .

سادساً — وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة . ووصلهم كذلك بسياسة الدول الأجنبية تجاه الشرق .

صرح الرجلان بأهداف الجريدة بهذه الطريقة الصريحة الجريئة ، فسرت بين الشرقيين سريان البرق . وتنافسوا جميعاً فى اقتنائها وتسابقوا كذلك فى اعتناق أفكارها وآرائها . ونجحت الجريدة بالفعل فى شفاء المسلمين من مرض (الوهم) الذى تسلط على نفوسهم وخيل إليهم أنهم أصبحوا لا يستحقون نعمة العلم ولا نعمة الحرية .

وفى مجال هذه الأفكار والآراء دارت مقالات الشيخ محمد عبده التى نشرها فى العروة الوثقى ، وحملت هذه المقالات طابع الدرس والشرح لجميع العلل التى أصابت العالم الإسلامى فى ذلك الوقت وكان من أخطر هذه العلل فى نظر الشيخ سوء فهمهم

(لعقيدة القضاء والقدر) — أو على الأصح — سوء فهم الأوروبيين لهذه العقيدة التي يعتنقها جمهور المسلمين ، واعتقاد أولئك الأوروبيين أنها سبب فى تأخر المسلمين ووقوعهم فريسة للاستعمار الأوروبى الذى زعم أنه يقودهم إلى العلم والحضارة .

قال الشيخ :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شجاعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترتجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها . بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة ، كل هذا فى سبيل الحق الذى دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة » .

* * *

أديب إسحق وجريدة مصر :

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة لمحررها أديب إسحق

فى الثلاثين من شهر يوليه سنة ١٨٧٧ ، وكان أديب يصف فيها الحريات التى تتمتع بها الدول الأجنبية ، ويحاول أن يشرح للشعب المصرى حقوق الحاكم وحقوق الرعية ، كما تصدى فى هذه الجريدة لشرح المعانى الجديدة على أذهان الشعب المصرى ، وهى معـــانى الوطن ، والوطنية ، وتعرض لوصف المذاهب السياسية والاجتماعية فى أكثر البلاد الأوروبية ، ومن أهمها الدولتان الألمانية والروسية . وهذه كلها أشياء كانت غريبة على الذهن المصرى كل الغرابة . فجاء شاب كأديب إسحق نهل من الثقافتين الشرقية والغربيـة ، وتولى بنفسـه تثقيف الشعب من هذه الناحية ، وكتب مقالاته كلها بأسلوب يذكر بأساليب الأدباء الكبار فى تاريخ النثر العربى من أمثال ابن العميد وبديع الزمان والقاضى الفاضل وغيرهم .

واختلف أديب إسحق مع ناظر النظار (رياض) فاضطر هذا الأخير إلى أن يأمر بنفيه إلى باريس ، فانتقل الرجل إليها بجريدته وهو فى حالة نفسية مؤلمة ، وهناك فى باريس أطلق على جريدته اسم :

جريدة مصر القاهرة :

وجاء فى أول عدد من أعداد هذه الصحيفة الأخيرة قوله :

« الحمد لله وحده . هذه صحيفة مصر : طواها الاستبداد فماتت شهيدة . ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة . ترسل إلى المريدين والأولياء ، ونبهاء القراء منهية إليهم أن قد آتانى الله نعمة الحرية ، ومن أوتى هذه النعمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، ولسوف ترون منى رواية الصادق ، فى رأى الآمل ، فى عزم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر فى بلاد مصر إطفاء نورى ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الظالمون . أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها للفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله . فزعم أنى ناصبته الشر نفرة منه وتشيعا لسواه ، وما أنا فى شىء من ذلك . فإنى أعز نفسا ، وأنبل قصدا من أن تستميلنى الأشخاص ، وإنما أميل مع المقاصد فما كان منها ملائما للمشرب الذى أحسه حقا :

فذلك من دون المشارب مشربى
وذلك ما بين المـذاهب مذهبى

وأما ما كان منها مغايرا للمبدأ الذى أراه عدلا :

رميتُ به من حالق رمْى حانق
متى يرم لم يخطىء وإنْ يبغ يدأب

ومات أديب إسحق فى التاسعة والعشرين من عمره .

* * *

عبد الله النديم :

والآن ، أنتقل إلى صحفى النصف الثانى من القرن الماضى غير منازع . ونعنى به السيد عبد الله النديم ، وهو أعجوبة عصره فى كل شىء : أعجوبة عصره فى نشأته ، وفى تعدد جوانبه ، وفى شعبيته ، وفى مواهبه .

والحق أن النديم من حيث مواهبه الكثيرة التى منها الكتابة والشعر والخطابة كان كنزاً عظيما من كنوز مصر ، غير أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح شتى . ولو أن النديم تفرغ لناحية واحدة فقط ، كناحية الصحافة ، لطورها ، وقفز بهـا إلى الغاية المرجوة منها فى أقل مدة ممكنة . غير أن العارفين بسيرة هذا الرجل يرون أنه شتت مواهبه بين نواح ثلاث ، هى ناحية القصة ، وناحية القصيدة ، وناحية المقال . وذلك كله

عدا الخطابة والزجل ، وعدا الكتب الأدبية القريبة الشبه بالمقامات .

ومهما يكن من أمر فقد كان أهم الصحف التى أصدرها النديم :

أولا — صحيفة التبكيت والتنكيت :

صدر العدد الأول منها فى السادس من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان فيها معنيا بالإصلاح الاجتماعى والإصلاح الخلق، وكتبها باللغتين العربية والعامية . قصد بالعربية طبقة الخاصة ، كما قصد بالعامية طبقة العامة :

وشاء أن يكون اسم الصحيفة دالاً عليها . فقد كانت طريقة النديم أنه يقسم مقاله فى هذه الصحيفة إلى قسمين : أولهما — (تبكيت) بمعنى توبيخ للمجتمع المصرى على عيب من عيوبه . وثانيهما — (تنكيت) على هذا المجتمع فى هذا العيب من عيوبه . ولا شك أن هذه طريقة من طرق الإصلاح الاجتماعى فى غاية البراعة . فوق أنها تحتاج من محررها إلى أقصى ما يمكن من الذكاء والمهارة .

ومن كتابات النديم العامية فى هذه الصحيفة ما جاء بعنوان :

« كم فى الزوايا من خبايا » .
وعنوان : « هف طلع النهار » .
وعنوان : « تخريفة خدْ من عبد الله واتكل على الله » .
وعنوان : « عربى تفرنج » الخ ...
فهذا قسم من أقسام الصحيفة .

وأما القسم الآخر من هذه الصحيفة فكان النديم يكتبه باللغة العربية السليمة ويتجه فيه إلى الطبقة المثقفة المستنيرة . ويسلك فى سبيل ذلك بعض الطرق الأدبية الممتازة مثل طريقة الرمز فى الكتابة . فعل ذلك فى مقال له بعنوان :

(مجلس طبى على مصاب بالافرنجى)

دخل به فى صميم المشكلة المصرية التى كان يفكر فيها المصريون إذ ذاك ، وهى مسألة الديون التى تورط فيها إسماعيل ، وبسببها أصيبت البلاد بالتدخل الأجنبى .

عبر (النديم) بلفظ (مصاب الافرنجى) الذى هو داء الزهرى عن الخراب الذى أصاب البلاد نتيجة لإسراف إسماعيل هذا ، ووقوعه فى براثن الدين ، ثم وقوع البلاد فريسة التدخل الأجنبى وفرض الرقابة الثنائية .

وعبر (النديم) بلفظ (مجلس طبى) عن العقلاء فى الأمة . وهم وحدهم القادرون على إنقاذ البلاد من هذا الخراب الذى حل بها .

وكنىّ النديم بلفظ (المصاب) فى ذاته عن مصر ، فصورها بصورة فتى كان صحيح الجسم قوى الأعصاب جميل الصورة لطيف المعشر . ثم ابتلى هذا الفتى بصاحب له (هو إسماعيل) أحسن الظن به أول الأمر فأسلم له نفسه . ثم ما لبث أن وقف على نواياه ، وعلم أن صاحبه هذا أوفى به على الهلاك وباعه فى الأسواق واشتراه منه سماسرة السوء من الأوروبيين ودعاة الحضارة من الغربيين فانزلقوا به فى مواطن الشبهات ووصلوه بالكأس والطاس ، وانغمسوا به فى دور البغاء . ففسدت صحة الفتى ، ولزم الفراش ، ويئس من الشفاء ، وألقى به فى قرية قذرة لا أنيس له فيها ولا معين . ومر به قومه على حين غرة فعرفوا داءه وفكروا فى دوائه ، ووقفوا به سريان الداء فى مفاصله .

ثم قامت الثورة العرابية فانتقل النديم بصحيفته تلك إلى الميدان واختار لها الزعيم أحمد عرابى اسما آخر هو :

صحيفة الطائف :

وفيها كتب النديم مقالات كثيرة وعنيفة فى نقد إسماعيل وتوفيق ، وكتب مقالات أخرى فى وصف حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من بؤس شديد ، ودعا الحكومة إلى وجوب العناية بهم لأنهم جزء من صميم الأمة المصرية .

واستأثر الإصلاح النيابى فى مصر بجانب هام من جهود النديم فى صحيفة الطائف ؛ وخاصة أن الثورة العرابية فى أساسها ثورة دستورية قبل كل شىء .

غير أن الخطأ الذى ارتكبه النديم فى صحيفة الطائف هو الطريقة التى اتبعها فى تحرير هذه الصحيفة منذ انتقل بها إلى ميدان القتال ، وهناك أخذ يمد القراء بأخبار المواقع التى بين العرابيين والإنجليز ، وفيها طفق يموه على الأذهان بوصف شجاعة المصريين ومعدات المصريين ، وذلك بالضبط على النحو الذى كان يفعله فى الخطب الكثيرة التى ألقاها لغرض الدعاية ، وكان يفخر فيها بذكر مدافع الإسكندرية التى إذا ضربت وصلت إلى جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الاستانة إذا أطلقت بلغ مرماها هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جاءت

الأساطيل الإنجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا ! !

وانتهت الثورة العرابية بالفشل واعتقل من زعمائها من اعتقل ، فهرب النديم واختفى عن أنظار الحكومة والجمهور ؛ ومكث مختفيا زهاء عشر سنين . . ثم أعلن الخديوى عباس حلمى الثانى العفو عن النديم سنة ١٨٩٢ فعاد إلى الظهور . ويومئذ رجع إلى ميدان الصحافة حيث أصدر صحيفته الثالثة وهى :

جريدة الأستاذ :

والحق أن هذه الجريدة الأخيرة كادت تكون صورة من الجريدة الأولى باسم (التبكيت والتنكيت) لولا ما امتازت به الأستاذ) من تنوع الأهداف التى تتلخص فيما يلى :

أولا — الإصلاح الاجتماعى .

ثانياً — إصلاح التربية والتعليم .

ثالثاً — الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب .

رابعاً — مهاجمة الاحتلال البريطانى دفاعا عن الخديوى عباس حلمى الثانى .

خامساً — الحملة على المبشرين المسيحيين .

وذلك كله فضلا عن عناية النديم باللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، والدعوة إلى احترام هذه المادة فى جميع مناهج الدراسة ، والدعوة أيضاً إلى معاملة مدرسيها بسخاء لا يقل عما يتمتع به مدرسو المواد الأخرى فى المدارس الحكومية . وبهذا الجزء الأخير من جهود النديم تأثر الزعيم الشاب مصطفى كامل ، فمضى هو الآخر يدافع عن أساتذة اللغة العربية بعد إذ مكر الاحتلال البريطانى بهم ، وجعل الفروق واسعة بينهم وبين مدرسى المواد الأخرى وخاصة مادة اللغة الإنجليزية .

* * *

وإلى جانب الصحف المتقدمة كانت هناك صحف أخرى تؤدى واجبها فى الميدان . ومن أشهر هذه الصحف :

صحيفة الأهرام :

وقد مضت هذه الصحيفة فى خطتها المعروفة — وهى خطة الاعتدال والتوسط دائماً بين المصريين والأجانب . فحينا تكتب فى مناصرة الوطنيين . وحينا تنقل آراء الإنجليز والفرنسيين فيما يتصل بالمشكلات المصرية المعروفة ورأيهم كذلك فى الأحداث المصرية الجارية ، كعزل رياض من الوزارة ومجىء شريف مكانه .

غير أن الخطأ الذى ارتكبته الأهرام فى هذا الطور من أطوارها أنها بالغت فى ذكر مثالب الباب العالى ، وبالغت فى الوقت نفسه فى ذكر محاسن الأوروبيين وخاصة الفرنسيين . وزادت على هذا وذاك أنها وقفت موقفا يوشك أن يكون معاديا للثورة العرابية — فاخذت تنذر العرابيين بالويل والثبور وعواقب الأمور .

* * *

ولا نستطيع أن نترك صحافة هذا الطور دون أن نشير إلى صحافة جديدة من حيث النوع ـ وهى الصحافة الهزلية . وإمام هذه الصحافة إذ ذاك هو « يعقوب بن صنوع » وكان من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . وقد لمس بيده مظالم إسماعيل فعاش حياته يسخر من أعماله حتى اضطر إسماعيل إلى نفيه من مصر إلى فرنسا حيث عاش معظم حياته .

وقد سلك (يعقوب بن صنوع) فى سبيل السخرية إسماعيل وأوضاع الحياة المصرية فى زمانه طريقين هما : طريق الصحف ، وطريق المسرح . ونجح نجاحا عظيما فى كل منهما .

أصدر هذا الفتى الإسرائيلى الأريب مجلة له سماها :

أبو نظارة زرقاء :

وصدر العدد الأول من أعداد هذه المجلة فى ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هجرية . وبنى سياسته فى هذه المجلة على التقريب بين مصر وجميع الدول الأوروبية باستثناء انجلترة ، كما بناها على تصوير الظلم الذى يعانيه المصريون فى عهد إسماعيل . وكان يلجأ فى ذلك إلى (فن المحاورات) التى يتسلى بها العامة ويعتبر بها الخاصة .

والذى يقطع بأن (ابن صنوع) إنما كان يقصد بمحاوراته هذه شخصا واحدا هو (إسماعيل) ما شاع فى أيام هذا الخديوى من أنه كان إذا غضب على أحد من أصدقائه دعاه إلى قصر من قصوره وقدم إليه فنجانا من القهوة دس فيه السم . فلا يكاد ضيفه يصل إلى بيته حتى يخر صريعا ، وتخفى الأسرة مع هذا سبب موته .

شاعت هذه الأخبـــار فى أيام إسماعيل . فأشار إليه (ابن صنوع) فى بعض محاوراته حيث يقول :

أبو الشكر : يامرحبا بك يابو نظارة .

أبو العينين : اتفضل اقعد يا عم وانجلى .

أبو خلاط : تريد تشرب إيه ؟

أبو الشكر : ابو نظارة قتيل البيرة ؟

أبو العينين : لا — الراجل يحب القهوة !

أبو نظارة : لا يا خويا — القهوة ما احبهاش لأنها خطرة في الأيام دى . واللى يشرب منها فنجان واحد يُبرم !

أخذ أبو نظارة يهاجم فى مجلته هذه الأمراء والوزراء والموظفين الأتراك والموظفين الأوروبيين . ذلك فضلا عن مهاجمة الخديو وكان لا يذكر هذا الخديو بالشكر والثناء إلا فى المواضع التى لا تستحق الشكر أو الثناء . وكان يشير إليه دائماً فى محاوراته باسم « شيخ الحارة » . ويشير إلى الفلاح المصرى باسم « أبى الغلب » . ويشير إلى نفسه باسم « أبى نظارة » تارة ، واسم « الحسيب القريب » تارة أخرى .

ونفى ابن صنوع إلى باريس سنة ١٨٧٨ . وهناك أصدر طائفة من الصحف الكثيرة هى فى الحقيقة أسماء لصحيفة واحدة . ومن هذه الأسماء على سبيل المثال :

١ ــ أبو نظارة زرقا .
٢ ــ النظارات المصرية .
٣ ــ أبو صفارة .
٤ ــ الحاوى .
٥ ــ أبو زمارة وهكذا .

الطور الثالث
من أطوار الصّحافة المصرية
"طور الكفاح ضد الاحتلال"

(من سنة ١٨٨٢ — إلى قيام الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩)

وضع اللورد دوفرين لمصر النظام الجديد الذى يتفق ومصالح الاحتلال ، ونص فى نهاية هذا النظام على أن هناك أمرا لابد منه لجعل هذه الأنظمة فعاله ومثمرة ، وهذا الأمر هو (الصحافة الحرة) ، وعقب المؤرخ الإنجليزى (يونج) على هذا بقوله : إن مصر نالت بسبب ذلك حرية صحفية لم يعرفها شمال إفريقيا ولا غرب آسيا ، وبسبب هذه اللغة من جانب اللورد دوفرين هذا أهمل العمل بقانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ .

ثم أتى اللورد كرومر لكى يعمل على تنفيذ هذه الأنظمة التى وضعها سلفه فى مصر ، فرأى أن يترك العنان للصحافة المصرية ، وخلت تقاريره السنوية من الحديث عنها مدة كبيرة ، ثم تحدث عنها فجأة فى التقرير الذى كتبه سنة ١٩٠٣ وتضمن التقرير كلمته المأثورة :

« إن الصحافة المصرية عاشت عشرين سنة منذ الاحتلال بدون تاريخ » فما مدى الصدق أو الكذب فى هذه العبارة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضينا النظر فى الصحف التى أبقى عليها الاحتلال ، والصحف التى حكم عليها بالتعطيل أو الإلغاء .

* * *

والواقع أننا حين ننظر فى هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة نرى أننا نستطيع أن نميز فيه فترات ثلاث :

(الأولى) وتقع بين سنتى ١٨٨٢ م ١٨٨٩ . وهى الفترة التى شهدت صحف :البرهان ، والاعتدال ، والسفير ، والمقياس ، والمقطم ، واستمرت فى الظهور صحف الوطن ومرآة الشرق والأهرام .

(الثانية) وتقع بين سنتى ١٨٨٩ م ، ١٩١٤ . وهى الفترة التى شهدت أعظم الصحف الوطنية شأناً ، وأجلها خطرا ، وأدلها على صحافة الرأى فى مصر ، ومنها صحيفة (المؤيد) للسيد على يوسف ، وصحيفة(اللواء) لمصطفى كامل وصحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفى السيد .

(الثالثة) ـ وتقع بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩١٩ ـ وهى الفترة التى ركدت فيها الصحافة الوطنية ، وحيل بينها و بين العمل المجدى ، وذلك فى أثناء الحرب العظمى .

الفترة الأولى

١٨٨٢ – ١٨٨٩

وتستطيع هذه الفترة أن تعطينا جزءاً من الإجابة عن السؤال المتقدم ، وهو « ما مدى الصدق أو الكذب فى عبارة اللورد كرومر ؟ — تلك العبارة التى ذهب فيها إلى أن الصحافة المصرية عاشت منذ الاحتلال عشرين سنة كاملة بدون تاريخ » .

فنحن حين ننظر فى هذه الفترة نراها تقترن بعدد من الصحف الشعبية التى وجدت قبل الاحتلال ، ثم ما كادت تفيق من غشيته حتى شرعت تستأنف النضال، وتتعرض فى أثناء ذلك للتعطيل حينا والإلغاء حينا آخر . ولا يتفق ذلك مطلقا مع رأى اللورد كرومر فى أن الصحافة المصرية وقفت ساكنة لا حراك بها بحيث أصبح اللورد لا يخشى سلطانها ، ولا يخاف على نفسه وعلى الاحتلال منها .

لقد بدأ الاحتلال حياته فى مصر بأن عمل على إلغاء الصحف الآتية : وهى صحف « الزمان ، والسفير ومرآة الشرق ، والصادق والفلاح ، وبعبارة أخرى جميع الصحف التى كان ينفق عليها مختار باشا الغازى سفير تركيا فى مصر ، وأكثر الصحف التى تعتمد

فى بعض مواردها على القنصلية الفرنسية » .

ولا غرابة فى ذلك فقد جاء الاحتلال مهددا لمصالح هذه الجهات الثلاث وهى :

جهة الوطنية المصرية التى أصيبت فى الصميم .

وجهة السيادة العثمانية التى لم يعد لكرامتها وهيبتها الأولى وجود .

وجهة المصالح الفرنسية التى أطاح بها السلطان الإنجليزى فى مصر .

وأكثر من هذا وذاك أن أوامر التعطيل والإلغاء كانت تنسحب أحيانا على بعض الصحف الشعبية التى أخذت جانب الاحتلال ، ومن هذه الصحف على سبيل المثال (صحيفة الوطن)، فقد استقبلت الحكومة المصرية الجديدة والاحتلال البريطانى ، أحسن استقبال ، وحملت على عرابى ورمته بتهمة التعصب الدينى ، وتجنت عليه وعلى المصريين فى هذا السبيل .

وبحسبنا بعد هذا كله أن نقف وقفة ما عند :

صحيفة الأهرام :

وقد عادت هذه الصحيفة إلى الظهور فى الحادى عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٨٣ ، وهى وإن بدأت فى تلك الفترة تحمل على

(العاصى عرابى) وتمدح (الخديو) وأنصار الخديو، مجاملة فى كل ذلك الاحتلال البريطانى، فإنها — أى الأهرام — أذهلت الرأى العام حين رآها المصريون فى سنة ١٨٨٤ م تنتقل على حين غرة فى سياستها من الضد إلى الضد، فتترك المجاملات التى كانت تبذلها للحكومة والإنجليز بشجاعة، وتأخذ جانب الشعب المصرى نفسه، وذلك فى جميع القضايا التى كانت تشغل قلبه، ومن أهمها يومئذ: (قضية السودان). وقفت الأهرام تنقد الإنجليز الذين نصحوا المصريين بترك السودان، وكان معنى ذلك بطبيعة الحال انفراد الاحتلال البريطانى بحكم تلك البلاد، وهو ما لم ترض عنه صحيفة الأهرام، ولا رضيت عنه حكومة شريف الذى قال كلمته المشهورة: «إننا إذا تركنا السودان فإن السودان لن يتركنا». ومن أجل هذا وجدنا بشارة تقلا يثنى ثناء مستطابا على شريف، ومن أجل هذا وجدت الصحافة الوطنية تشيد بموقف الأهرام، وتصفها بأنها ذات سياسة عثمانية مصرية، تدافع فيها عن المصالح الفرنسية، ولكنها لا تهمل الدفاع عن مصلحة مصر قيد أنملة.

ثم ما إن ظهر فى ميدان الجهاد شاب عظيم الشأن، هو مصطفى كامل، وجاهر بالعداء ضد الاحتلال، وطالب الإنجليز بالجلاء

حتى رأينا الأهرام تفسح له من صدرها ، وتقف وراءه مؤيدة ومناصرة .

وهكذا توشك جريدة الأهرام فى تلك الفترة من حياتنا السياسية أن تنفرد بحمل لواء الجهاد ، وكان ذلك يغيظ الحكومة المصرية فكانت تأمر بتعطيل الأهرام ، فيحتج لذلك القنصل الفرنسى ، فتفرج الحكومة عن هذه الصحيفة .

نعم فمما لا شك فيه أن الأهرام كانت تميل إلى فرنسا ، وكانت فى رأيها هذا شبيهة بمصطفى كامل الذى كان هو الآخر يعول تعويلا كبيرا على فرنسا . وبقى الحال على ذلك إلى أن حدث الاتفاق الودى بين انجلترة وفرنسا ، وهو الاتفاق الذى أطلق أيدى الإنجليز فى مصر فى مقابل أن يسمحوا بإطلاق أيدى الفرنسيين فى الجزائر .

وإذ ذاك كان على كل من مصطفى كامل والأهرام أن يعدلا نهائيا عن تلك السياسة .

والخلاصة أن ميول الأهرام نحو فرنسا فى فترة ما لا يمكن أن يغض من هـــذه الحقيقة التى أشرنا إليها ؛ وهى أن هذه الصحيفة هى التى وقفت وحدها فى الميدان حتى ظهرت فيه عدة صحف وطنية من أخطرها صحيفة « المؤيد » للسيد على يوسف.

ولكن هذه الصحيفة الأخيرة سبقتها إلى الظهور صحيفة شعبية أخرى لا نستطيع أن نهملها وهى :

صحيفة المقطم :

وهى الصحيفة التى اعتمد عليها الاحتلال البريطانى . فأمدها اللورد كرومر بالمال ، وبالأخبار وبالإعلان ، وبكافة المواد الصحفية التى تكفل لها الرواج ، وحين ظهرت « المؤيد » بعدها بعام واحد لقيت — على عكس ذلك — من صنوف الإيذاء والاضطهاد والحرمان ما شهد لصاحبها بالبطولة والمهارة ، فقد كان « كرومر » يؤثر صحيفة المقطم بالأخبار الحكومية فى الوقت الذى كان يحرم فيه « المؤيد » من هذه الأخبار الحكومية لتقل بذلك قيمتها الإخبارية فى نظر الجمهور .

ومع هذا وذاك فسنرى كيف صبر السيد على يوسف واحتال للوصول إلى الأخبار الهامة ، وأذهل بذلك الاحتلال البريطانى، وحمل عميده اللورد كرومر على مبارزة هذا الصحفى الأعزل من كل شىء ، ثم شاءت الأقدار أن ينتصر السيد على يوسف وينهزم جبار الاحتلال البريطانى فى قضية هامة سنشير إليها بعد قليل هى قضية التلغرافات .

قام أصحاب المقتطف — بإيعاز من المعتمد البريطانى — بإنشاء صحيفة « المقطم » ، وصدر العدد الأول منها فى الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٨٨٨ م وقالت إنها « صحيفة يومية سياسية تجارية هدفها خدمة المصالح الوطنية » ، ثم جاء مسلك هذه الصحيفة مكذبا كل التكذيب لهذا العنوان العريض. وسرعان ما أدرك الرأى العام فى مصر كل ذلك ، وفهم أنها صحيفة إنجليزية ، وكل أعمال الحكومة ممدوحة لديها ، ثم جاء تصرف المحتلين مطابقا لهذه الدعوى.

فإذا فكرت الحكومة المصرية فى تعطيل « المقطم » ، لأنها تهاجم الخديو تصدى المعتمد البريطانى لحمايتها ، وحال دون تنفيذ الحكم عليها. وأكثر من هـــذا وذاك أنه يثبت بالدليل القاطع أن كلا من نظارتى الداخلية والحربية كانت تخص « المقطم » كل عام بمنحة مالية ؛ تشجيعا لها على الدفاع عن المصالح البريطانية.

وازداد عداء الشعب المصرى « للمقطم » ، حتى ترجم هذا العداء إلى مظاهرات شعبية هاجمت الصحيفة وقذفتها بالحجارة ، ومع هـــذا وذاك فقد صمدت الصحيفة فى الميدان تساندها

الحكومة من جانب ، والاحتلال من الجانب الآخر ، حتى ضاقت الأمة المصرية ذرعا بها ، وفكر بعض الوطنيين فى إنشاء صحيفة مناهضة لها، وهى صحيفةالمؤيد . وهنا تبدأ فترة أخرى من فترات هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية سنفردها بالكلام فيما يلى :

الفترة الثانية

١٨٨٩ - ١٩١٤

وفيها ظهرت صحف كثيرة من أهمها :

- صحيفة المؤيد للسيد على يوسف سنة ١٨٨٩ .
- صحيفة الأستاذ للسيد عبد الله النديم سنة ١٨٩٢ .
- صحيفة المنار للسيد رشيد رضا سنة ١٨٩٨ .
- صحيفة اللواء لمصطفى كامل سنة ١٩٠٠ .
- صحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفى السيد سنة ١٩٠٧
- صحيفة العلم وهى لسان الحزب الوطنى . سنة ١٩١٠
- صحيفة الشعب وهى لسان الحزب الوطنى كذلك سنة ١٩١٣

وهذا كله عدا صحيفتى الأهرام ، والوطن وغيرهما .

صحيفة المؤيد :

وصاحب هذه الصحيفة كما قلنا هو السيد على يوسف ، كان شابا أزهرى النشأة ، ثم بدا له أن يفر من الأزهر إلى الحياة العامة . وإذ ذاك اختار لنفسه مهنة الصحافة .

يقول الأستاذ تشارلز آدمز فى كتابه (الإسلام والتجديد) عن صاحب المؤيد .

«كان السيد على يوسف صحفيا ماهرا ، وله دهاء ومكر أحيانا ، ولقد رفع المؤيد إلى مكان الصدارة فى العالم العربى ، فاحاط الخديو عباس هذه الصحيفة برعايته ، وشملها بحمايته وأصبح الشيخ على يوسف يسير فى ركاب الخديو حيث سار ، وأخلص له إخلاصاً يفوق إخلاص مصطفى كامل لهذا الجالس على العرش. وقد وجه السيد على يوسف سياسة المؤيد وجهة خاصة ، فجعله يوما للدعوة إلى الرأى المحافظ، وكان فى نظر خصومه ـ على الأقل ـ يهيج كوامن التعصب الدينى .

ويقول الخديو عباس فى مذكراته :

«كنت أود أن يكون لى صحيفة قادرة على أن تثير الشعب المصرى وتقوده شيئاً فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا لكلمة الوطن وواجبات المواطن، فدعوت كاتبا من كتاب اللغة العربية كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه ـ هو الشيخ على يوسف ، وكان خارجا من الجامعة الأزهرية ، وكان قد لفت إليه الأنظار ـ إن لم يكن باتساع أفقه الفكرى ، فبحماسته فى المنافشة ، وبموهبته الحقيقية فى الجدل . وبقدرته المعروفة فى هضم المسائل ، وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم إلا العربية ، ولم يدرس إلا فى الجوامع » .

ولقد عرفت مصر كاتبا آخر شبيها فى نشأته بالسيد على يوسف ، ومتحيزا مثله لجانب الوالى الشرعى للبلاد أيا كان ، وهذا الكاتب الذى نقصد إليه هو الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة « البرهان » ثم جريدة « الاعتدال » . ولكن الفرق عظيم جدا بين هذين الكاتبين :

أما أحدهما - وهو السيد على يوسف - فكان كما ذكرنا رجلا ذا دهاء ومكر وسعة حيلة أعانته على أن يكون صحفى مصر السياسى فى أدق فترة من فترات حياتها - وهى فترة الاحتلال البريطانى ، أو بعبارة أدق - كان رجلا نصفه للأمير ، ونصفه للجماهير ، ومع ذلك لم يحاول أن يميل بصحيفته إلى جهة منهما على حساب الثانية .

وأما الآخر - وهو الشيخ حمزة فتح الله - فكان رجلا رجعيا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، اشترك فى تحرير « البرهان » التى صدرت بالاسكندرية سنة ١٨٨١ م ، فجعل منها صحيفة للسراى ، وراح يزهو بهذه النسبة ، ويملأ صفحات جريدته بالحمد والثناء على الخديو ، حتى وصفه بأنه (آية من آيات الدهر ، إذا رأيته ألقيت فى محياه ما يجذب الأفواه للتسبيح .

لا سيما إذا ترقرق ماء البشر فى غرته ، وتفتق نور المجد من أسرته) الخ .

وتتحمس الصحف كلها للشورى ، وتؤيدها بكل ما تملك من قوة ، ويأبى الشيخ حمزة فتح الله إلا أن ينفرد برأى فى الشورى يتملق به أولى الأمر وذلك حيث يقول :

فأما الشورى - وإن كانت ممدوحة عقلا وشرعا بما ورد فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر ؛ بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ أحكامهم ، لأن هذا مالا يقول به أحد » :

فأين هذا كله من دفاع السيد على يوسف عن نظام الشورى فى البلاد ، ومن بلائه الحسن فى مكافحة الاحتلال وما جره عليها من فساد ؟؟ وأين هذا كله من دفاع شاب كأديب أسحق عن الحرية وعن الكرامة المصرية ؟ ثم أين هذا كله من مواقف النديم المشهورة فى صحيفة الأستاذ ! وكلها ذود عن الحرية ونظام الشورى ؟

الحق - لقد كان الشيخ حمزة فتح الله رجلا بعيدا عن العصر الذى عاش فيه ، ولم يكن كالنديم وغيره من الصحفيين النابهين قطعة من ذلك العصر ، وصورة مما جرى لأهله .

منذ فكر السيد على يوسف فى إنشاء « المؤيد » وهو يصادف طائفة من المصاعب كانت كل واحدة منها كفيلة بإسقاطه لولا صفات خاصة فى الرجل - هى تلك الصفات التى أشاد بها الأستاذ « تشارلز آدمز » .

ومن تلك الصعوبات صعوبة آتته من « قلم المطبوعات » ، وكان على رأسه إذ ذاك موظف إنجليزى ، ومن ثم كانت للمؤيد قضايا مشهورة فى تاريخ الصحافة من أهمها :

قضية التلغرافات :

ففى شهر مايو سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة الحربية أمرا بعدم إعطاء المؤيد أية معلومات عن الحملة المصرية على دنقلة ، فوقع السيد على يوسف فى حيرة شديدة : أيضرب صفحا عن أنباء هذه الحملة مع أن أنباءها تهم الشعب ، وجنود الحملة هم أبناء هذا الشعب ؟ أم يفعل هذا الرجل كل ما يستطيع حتى يصل إلى ما يريد ؟ .

وفى ٢٦ من شهر يولية سنة ١٨٩٦ - والساعة الثانية بعد الظهر - أخذ موظفو مكتب تلغراف الأزبكية يتلقون إشارة برقية من السردار بالسودان إلى ناظر الحربية بالقاهرة انتهوا

منها فى العاشرة والنصف مساء، وفى هذا التلغراف يعتذر السردار عن تأخيره فى الاتصال بالقاهرة بسبب الكوليرا التى تفشت فى الجيش، وكان لها إصابات كثيرة.

ثم فى يوم ٢٨ من يولية فوجىء ناظر الحربية بنشر هذا التلغراف برمته فى صحيفة المؤيد، فهاج لذلك وهاجت معه السلطات الإنجليزية!

وتوالت على مكتب التلغراف بالأزبكية برقيات من هذا النوع ينشرها المؤيد كاملة فى اليوم التالى. إذ ذاك فكر اللورد كرومر فى حيلة يسوق بها السيد على يوسف إلى المحاكمة، وذكر كرومر أن القانون العام يعاقب الموظف الذى يعمل على إفشاء أسرار الحكومة، وعلى هـــذا ففى وسع كرومر أن يقدم الموظف المسئول فى مكتب التلغراف بالأزبكية إلى المحاكمة بهذه التهمة، وفى وسعه كذلك أن يقدم معه السيد على يوسف بتهمة الاشتراك فى هذه الجريمة.

وسئل السيد على يوسف فى المحكمة عن المصدر الذى اعتمد عليه فى هذه البرقيات؟ فأجاب بأن سر المهنة يحول دون تصريحه بشىء من ذلك؛ لذلك عجزت النيابة عن أن تلفق له تهمة يعاقب عليها.

ثم فى يوم النطق بالحكم احتشدت الجماهير فى ساحة المحكمة حتى لم يكن فيها موضع لقدم واحدة ، وتوافد الناس من الأقاليم ليشهدوا بأنفسهم ذلك اليوم ، حتى لقد ضاقت بهم فنادق القاهرة .

ثم فى يوم ١٨ من شهر نوفمبر صدر الحكم ببراءة السيد على يوسف فهتفت له الجموع ، وصفقت له وهللت ، وأقبل بعضهم يهنىء بعضا بهذا الحكم ، ثم انثالوا على صاحب المؤيد فحملوه على الأعناق وخرجوا به من ساحة المحكمة ، وكان يوماً مشهودا فى تاريخ الشعب المصرى ، أنتصر فيه انتصارا باهرا على اللورد كرومر .

وحسبنا ذلك لننتقل إلى الكلام عن صحيفة أخرى هى :

صحيفة اللواء :

ولهذه الصحيفة فى الحقيقة من اسمها نصيب كبير ، فهى التى حملت لواء الحركة الوطنية ، وبقيت تحمل هذا اللواء حتى بعد وفاة صاحبها الزعيم الشاب مصطفى كامل ، ولقد صدر العدد الأول من هذه الصحيفة يوم الثلاثاء غرة رمضان سنة ١٣١٧ وهو الموافق لليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٩٠٠ ، وقد رسمت الصحيفة لنفسها إذ ذاك برنامجا يتألف مما يلى :

أولا — الدفاع عن فكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها الطريق الوحيد فى نظرها للتخلص من الاحتلال البريطانى .

ثانياً — تنشيط الحركة الوطنية بكل الوسائل والترويج لها بكل الطرق .

ثالثاً — تربية الأمة المصرية تربية سياسية بحيث تصبح فى أقرب وقت ممكن أهلا للاستقلال والحرية .

رابعاً — توجيه الرأى العام المصرى أحسن توجيه وأكمله فى ميدان الإصلاح الاجتماعى .

خامساً — الدفاع عن الدين الإسلامى ضد هجمات الاستعمار الأوربى .

وفى سبيل الهدف الأول من هذه الأهداف انطلقت الصحيفة تؤلف بين المصريين والأتراك باعتبار أن دولتهم « هى التى تحمى المسلمين ، وتحفظ البلاد المقدسة الطاهرة من أعداء الدين ، ولأنها زعيمة العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر بدون منازع »

وفى سبيل الهدف الثانى — وهو الحركة الوطنية — انبرت اللواء تدافع عن المصريين فى كل موقعة من المواقع التى اصطدموا فيها بالاحتلال البريطانى ، وكان لهذه الصحيفة قبل هذا كله أكبر الفضل فى أنها خلصت المصريين من اليأس الذى ملأ نفوسهم

وران على قلوبهم بازدياد النفوذ البريطانى — ولا سيما بعد حادث فاشودة ، واتفاق السودان ، فإذا المصريون بتأثير هذه الصحيفة يدب الأمل فى قلوبهم ، وينقادون للحركة التى قام بها زعيمهم الشاب مصطفى كامل .

وقد كان لهذا الزعيم طرق كثيرة فى بعث الروح الوطنى فى المواطنين ، ومنها على سبيل التمثيل :

أولا — تحرير المقالات فى اللواء — يسرد فيها تاريخ الأمم الحية ، ويشيد بمواقفها فى ميدان الكفاح من أجل الحرية .

ثانياً — تحرير المقالات كذلك فى سير العلماء والعظماء الذين اشتركوا فى بناء الأمة المصرية ، وكان لهم فضل لا نكران له فى تقدمها .

ثالثاً — تحرير المقالات فى سبيل الدعوة إلى تأسيس المدارس على نفقة الشعب المصرى ، وعدم الاعتماد فى شىء من ذلك على الحكومة . وكان هو من أول الذين قاموا بتنفيذ هذه الفكرة بل كان هو أول داع فى الحقيقة لإنشاء « الجامعة المصرية » .

رابعاً — العناية بتسجيل الحوادث الوطنية فى صحيفة اللواء والكتابة من حين لآخر فى ذكرى هذه الحوادث . وكان من أكبرها حينذاك :

حادثة دنشواى :

وهى المأساة المشئومة على الاحتلال البريطانى ، لأنها انتهت بسقوط اللورد كرومر عن كرسى العمادة فى مصر . وإذ ذاك تم لصاحب اللواء أكبر ما كان يتمناه لنفسه ولبلاده من نصر . ويومها كذلك نشر هذا الرجل مقاله المشهور بعنوان :

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن
بتاريخ ١٨ من يولية سنة ١٩٠٦

وفيها سرد الكاتب هذه القصة . ثم قال :

« ولكن — ما عرفها أصحاب الأمر من الإنجليز فى مصر حتى فقدوا رشدهم ، وثاروا لقيام المصريين بالدفاع عن أنفسهم وعن أملاكهم ، وبدلا من أن يقابلوا الحادثة بسكون ورباطة جأش ، وينظروا إليهــا كما ينظرون إلى غيرها من المعارك والمشاجرات التى من هذا النوع ، بالغوا فيها ، وجسموها ، وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال قبل المحاكمة أن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة . فلم تكن العدالة إذن هى المنشودة من المحاكمة بل كان المنشود هو الانتقام » إلى آخر ما جاء فى هذا المقال .

الجريدة :

وإذا كانت صحيفة المؤيد هى لسان حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وكانت اللواء لسان الحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل ، فإن الجريدة هى لسان حزب الأمة الذى هو أول الأحزاب المصرية ظهوراً فى الحقيقة ، ثم تلاه حزب الإصلاح ، وأخيراً ظهر الحزب الوطنى . وحدث هذا كله بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ .

ومعنى ذلك أن الأحزاب المصرية الهامة ولدت فى أحضان الصحافة ، وتلك ظاهرة تستحق التسجيل ، وفيها الدليل الذى ليس بعده دليل على خطورة الصحافة المصرية فى تلك الفترة .

وقيل فى السبب الذى من أجله ظهرت « الجريدة » أن حادثاً وقع إذ ذاك وكان له تأثير كبير فى نفوس المصريين وعقولهم — وهو حادث « العقبة » ، وخلاصته أن الحكومتين التركية والمصرية اختلفتا على « العقبة » ؛ كل تدعيها لنفسها دون الأخرى ، وتدخلت انجلترا بينهما ، فانتصرت لمصر على تركيا . ولكن الصحافة المصرية تنبهت لهذا الوضع ، ولم تجز عليها الخدعة الإنجليزية فى ذلك الوقت ، ونصرت الأتراك على الإنجليز

فى هذه المشكلة ، فذهل الاحتلاليون لهذا الموقف ، وعاد الوطنيون فى مصر يفكرون فى الأمر ، فكان من رأى لطفى السيد أن تنشأ جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص لتركيا أو إلى إحدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد (يريد بالسلطة الشرعية الخديو عباس وبالسلطة الفعلية لورد كرومر) ، ورأى الأستاذ لطفى السيد أن تكون الجريدة ملكا لشركة من أعيان البلاد أو أصحاب المصالح الحقيقية فيها وهم الذين ظن اللورد كرومر أنهم راضون عن الاحتلال، متوهما أن حركة المعارضة لهذا الاحتلال لا يقوم بها إلا من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد ، وهم طبقة الأفندية من جانب وباشوات الأتراك من جانب آخر . أما الأهداف التى سعت إليها (الجريدة) فتتلخص فيما يلى :

أولا — نشر عقيدة الاستقلال بين أفراد الأمة المصرية ودحض الفكرة القائلة بأن مصر يمكن أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا وتركيا ، مع أنه لا سبيل فى الواقع إلى حرية المصريين إلا بجهود المصريين .

ثانياً — السعى لإزالة الفروق فى الرأى بين المصريين وإحلال التشابه فى العقيدة محل الخلاف فيها — وبعبارة أخرى —

تكوين مايسمى بالرأى العام المصرى من جديد ، وبذلك يتحد المصريون فى أهدافهم مهما كانت آراؤهم .

ثالثاً — إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع ، والنظر فى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها مستقلة عن غيرها من الدول ومنها الدولة العثمانية نفسها .

رابعاً — توجيه النقد إلى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد، والنظر فى هذا النقد إلى مصلحة المصريين وحدهم ، من غير تحيز لأحد الجانبين المذكورين فى حال اختلافهما ، أو فى حال اتفاقهما، أو فى الحال التى يكونان عليها بين بين .

خامساً — المطالبة بالدستور، والدأب على هذه المطالبة بعد إذ تبين للمصريين أنه يستحيل عليهم التقدم خطوة إلى الإمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة فى الأعمال العامة ، ولن يكون ذلك إلا بحصول الأمة على الدستور ولو بالتدريج ، وذلك عن طريق الدفاع عن مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين ، وتوسيع اختصاصهما تمهيداً للوصول إلى حياة نيابية أقرب للكمال .

سادساً — الرد على مزاعم الإنجليز، وبخاصة ماجاء منها مخالفاً تقارير اللورد كرومر والدن غورست ، حتى يثبت للعالم الحر أن مصر خليقة بالكمال الذى تنشده، وأن الإنجليز ظالمون فى

نظرتهم للدين الإسلامى من جهة ، وظالمون فى تقديرهم للموظف المصرى والكفاية المصرية من جهة أخرى .

سابعاً — الدعوة لمذهب الحريين ؛ ليكون أساساً لتربية الأمة المصرية ، ولحرية التعليم ولحرية القضاء ، ولحرية الكلام والكتابة ، ولحرية الاجتماع ، وسائر أنواع الحريات الأخرى ، مع العناية التامة ببرامج التعليم حتى يصبح ملائماً لأغراض الأمة والجيل الجديد .

ثامنا — النهوض بالحركتين العقلية والأدبية ، وإفساح المجال للشبيبة المصرية لكى تظهر مواهبها المختلفة .

تاسعا — العمل على تشجيع الصناعة والتجارة والزراعة حتى تبلغ كل منها الحد الذى يتفق وآمال البلاد .

عاشرا — العمل على تقوية الوحدة القومية مع اليقظة التامة لتوحيد عنصرى الأمة المصرية — وهما عنصر المسلمين وعنصر الأقباط — حتى لا يجد المحتل ثغرة ينفذ منها إلى تحطيم الوحدة أو النيل من الحركة الوطنية .

وباختصار كانت (الجريدة) ومحررها أحمد لطفى السيد ، تشترك مع (اللواء) ومحرره مصطفى كامل فى الأهداف الوطنية . ولكنهما يختلفان اختلافا كبيراً فى الوسائل : فبينما مصطفى

كامل يرى الاعتماد على الدولة العلية ، إذ بلطفى السيد لا يرى الاعتماد على هذه الدولة أو غيرها ، بل على المصريين وحدهم دون غيرهم . وبينما دعا مصطفى فى (اللواء) إلى ما يسمى (بالجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية) ، إذا بلطفى السيد فى (الجريدة) دعا إلى (الجامعة المصرية) أو (الجامعة القومية) . وقال فى ذلك :

« إن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانجلترة والدولة العلية ، وعلينا ألا نعير سياسة الخلاف ، أو سياسة الوفاق أية أهمية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور ، وحقنا فى الحرية . لابد لنا من ذلك ، ومن عزة تربأ بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتى لتحرير أنفسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى ، كأننا — كما ظنوا خطأ بنا — ينبغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام » .

* * *

مهما يكن من شىء فقد ضاق الاحتلال بصحف الحزب الوطنى أكثر مما ضاق بصحف الأحزاب الأخرى ، وكانت صحف الحزب الوطنى معروفة بالتطرف فى اللهجة ، فتوالت إنذارات الحكومة لصحيفة اللواء ، وكان لابد من تعطيلها

أو القضاء عليها بأية وسيلة ، فلم يجد الحزب الوطنى بدا من أن يصدر اللواء بأسماء جديدة . فتارة يصدرها باسم « العلم » بفتح اللام ، وقد تم له ذلك سنة ١٩١٠ . وأخرى باسم « الاعتدال المصرى » ونحو ذلك .

غير أن هذه الصحف كلها ألغيت تباعا بأمر الحكومة ، ولم يبق للحزب الوطنى فى النهاية غير صحيفة واحدة باسم :

صحيفة الشعب :

وقد صدرت هذه الصحيفة سنة ١٩١٣ ، وهى السنة التى شهدت فى تاريخ مصر حدثا من الأحداث الهامة فى المجال الدستورى . وخلاصته أن الخديو عباس حلمى الثانى ــ بضغط من الوطنيين وأصحاب الصحف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ــ أصدر ما يسمى (بالقانون النظامى) . وبمقتضاه ألغى المجلسين السابقين ؛ ليحل محلهما مجلس جديد باسم « الجمعية التشريعية » .

غير أن هذه الجمعية التشريعية لم تحقق رغبات البلاد ، بل ظهر أنها لعبة جديدة من تلك التى كان يلعب بها الاحتلال . وبحسبنا أن نعرف أن هذه الجمعية التشريعية لم يكن من حقها محاسبة الوزراء .

إذ ذاك انبرى (أمين الرافعى) لمحاسبة الجمعية من جهة ، ومحاسبة الحكومة والاحتلال من جهة أخرى على هذا النظام ، وشرع يكتب المقالات الطوال فى هذا المعنى ، وفى بعضها يقول : « نعم — إن القانون النظامى الجديد عدل نظام الانتخابات ، ومنح الجمعية التشريعية حق التشريع فى مسائل محصورة ، ولكنه فيما عدا ذلك وقف بالهيئة الجديدة حيث كانت الهيئات القديمة ، بل رجع بها إلى الوراء ؛ بأن حرم عليها الخوض فى مسائل لم تكن محرمة عليها قبل ذلك ، وخول الحكومة حق حل هذه الهيئة إذا لم توافق على القانون المعروض عليها للمرة الثالثة » .

وفى أخرى من مقالات الرافعى وجدناه يقول : « أعطونا حق إسقاط الوزارة ، وخذوا لأنفسكم حق حل الجمعية التشريعية » .

وفكرت الجمعية التشريعية فى وضع لائحة داخلية للأعضاء ، فحالت الحكومة المصرية — بوحى من الاحتلال — بينها وبين ما أرادت ، فثار (أمين الرافعى) لذلك وأخذ يقول :

« لقد دهشت الصحافة الأفرنجية المحلية من ذلك ، ومن منع الأعضاء من حق الكلام فى أول جلسة ، بل انتقدت بشدة

موقف الرئيس عند ما طلب سعد باشا زغلول الكلام لتهنئته بالرياسة ، وانتقدت دعوة الرئيس لسعد زغلول أن يكون الكلام مقصوراً على الشكر ، وتساءلت إحدى هذه الصحف عن أعضاء الجمعية : هل هم فى مدرسة يقول ناظرها — والمقرعة فى يده — أيها التلميذ سعد زغلول : قل الثلاثة الأسطر التى حفظتها واجلس فى الحال ؟

وأعلنت الحرب العظمى بعد ذلك فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، فمضت « الشعب » فى صدورها إلى السابع عشر من ذلك الشهر ، ثم اضطرت الحكومة المصرية - بإشارة من السلطة العسكرية - إلى إصدار طائفة من القوانين الاستثنائية . ومنها قانون منع التجمهر فى ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٤ ، ثم إعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف فى الثانى من نوفمبر ، من نفس السنة ، ثم إعلان الحماية البريطانية نفسها فى الثامن عشر من شهر ديسمبر فى نفس السنة كذلك .

وأصدرت الحكومة المصريه أمرها لجميع الصحف بنشر إعلان الحماية فى صفحاتها الأولى ، فكبر على نفس أمين الرافعى أن يلطخ صحيفة « الشعب » بهذا العار ، وصمم على وقف الصحيفة عن الإصدار ؛ فذلك أكرم له وللشعب المصرى نفسه

من أن تطبع صحيفة من صحفه وثيقة الإعدام والانكسار ، وبالفعل تم له ذلك فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٤ .

* * *

فذلك إذن هو العصر الذهبي للصحافة المصرية ، بل تلك هى الفترة التى أطلق عليها المؤرخون اسم : « الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية » . والمؤرخون على حق فى هذه التسمية ؛ لأن صحافتنا قامت إذ ذاك بكل ما عليها من واجبات ، وتحملت فى سبيله من التضحيات ما جعلها ترقى إلى مرتبة أعلى الصحف فى زمانها وفى بلاد غير بلادها .

فهل بعد هذا كله يحق لرجل كاللورد كرومر أن يقول فى تقريره عن سنة ١٩١٣ « إن الصحافة المصرية عاشت منذ الاحتلال البريطانى عشرين عاما بدون اريخ » ؟

أظن أن الواقع يكذبه بطريقة سافرة ، وأن التاريخ نفسه يجبر قومه الآن على تمزيق التقرير الذى تضمن عبارة كتلك العبارة السابقة ! !

الفترة الثالثة

١٩١٤ – ١٩١٩

وهى فترة الركود، بالنسبة للصحافة المصرية، وذلك بسبب قيام الحرب العظمى، واستحالة العمل الصحفى على وجه من الوجوه فى ظل الأحكام العرفية. وفى تلك الفترة توقفت معظم الصحف عن الصدور، وبقيت كذلك حتى نشبت الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها فى السنة السابقة لها، وكان الاحتلال البريطانى فوق هذا وذاك قد عطل الجمعية التشريعية هى الأخرى. وذلك فى الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩١٤.

وفوق هذا وذاك، فقد ارتفعت أسعار الورق ارتفاعا فاحشا، وانخفض توزيع الصحف القليلة التى استمرت فى الظهور إلى درجة كبيرة، وأصبح أكثرها يصدر على نصف فرخ من الورق فقط. وكانت هذه الأسباب كلها مدعاة إلى اختفاء أكثر الصحف، — فلم يكن يظهر منها — فيما نعلم إلا صحيفة واحدة هى:

صحيفة السفور:

وهى صحيفة أدبية اجتماعية نقدية تصدر مرة فى كل أسبوع،

وقد ظهر العدد الأول منها يوم الجمعة ٢١ من شهر يوليه سنة ١٩١٥ بمدينة القاهرة ، وصاحبها هو عبد الحميد حمدى ، ومن كتابها يومئذ محمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وأحمد أمين .

والحقيقة أن (السفور) كانت امتدادا (للجريدة) التى كان يحررها أحمد لطفى السيد ، وكان معه فى تحريرها طائفة من الشباب المثقف ممن عز عليهم أن ينقطع نشاطهم الفكرى بسبب الحرب ، وبسبب اختفاء (الجريدة) عام ١٩١٥ ، فاتفقوا على إصدار هذه الصحيفة الجديدة ، واتفقوا على ألا يخوضوا فيها — على أية حال — فى السياسة .

وفى صحيفة السفور أتم أولئك الشبان المثقفون من تلاميذ الأستاذ أحمد لطفى السيد رسالة التجديد التى بدأوها من قبل فى « الجريدة » ، واكتفوا بهذا القدر من النشاط حتى قامت الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

الطور الرابع
من أطوار الصّحافة المصرية
"طور استكمال الحرية والدستور"

(من سنة ١٩١٩ — إلى سنة ١٩٢٨)

تمهيد

منذ الاحتلال البريطانى الذى فرض نفسه على البلاد فى عام ١٨٨٢ للميلاد ، والمصريون يقاسون ألوانا من العسف والظلم ، ومن الضغط والذل ربما تنوء بها الشعوب الأخرى ، فلقد أطاح الاحتلال باستقلالهم الداخلى الذى أقرته معاهدة سنة ١٨٤٠ ، كما أطاح الاحتلال بدستورهم الذى نالوه على يد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ . ومنذ ذلك الوقت ولمصر قضية كبرى ذات شقين : أولها الاستقلال ، وثانيهما الدستور .

ومن ثم أصبح للصحافة المصرية فى ذلك الطور هذان الهدفان اللذان سعت إليهما سعيا حثيثا ، حتى نالتهما فى النهاية . وحينذاك مارس المصريون حياة دستورية صحيحة ، وأصبح لهم دستور ينص على حق النواب فى مناقشة الوزراء .

وتلك هى المرة الثانية التى نجحت فيها صحافتنا الوطنية الماجدة فى أن تكون صحافة رأى بالمعنى الصحيح ، المرة الأولى عندما كانت تناضل الاحتلال وتناقشه الحساب . وإذ ذاك ظهرت صحف المؤيد واللواء والجريدة . والمرة الثانية بعد قيام الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ونجاح هذه الثورة فى تحقيق

الأهداف التى سعت إليها .

وفى تلك الأثناء تعرض الشعب المصرى لطائفة من المحن الشــداد كادت تفضى إلى فنائه ، وتذهب بكيانه وكثير من مقوماته . ومن هذه المحن الشداد محنة الحرب العالمية الأولى أو الحرب العظمى ، وفيها عصف الاحتلال بكل ما لمصر إذ ذاك من مال ورجال ؛ وكتم أنفاس الصحافة المصرية ، وأغلق دونها الأبواب .

ثم من تلك المحن الشداد محنة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وفيها تعرض الشعب والقادة للاضطهاد بكل صوره وأشكاله . وهو اضطهاد كتب للمصريين فيه صفحة المجد ، وكان كالنار التى تصهر الذهب لتكشف عن أصالته وصفاء عنصره .

ثم منها — أى من تلك المحن — محنة الانقسام الداخلى ؛ وذلك بسبب المفاوضات بين مصر وانجلترة ، وهو انقسام أفادت منه هذه الأخيرة فى أول الأمر . وفى جو هذا الانقسام ظهرت نفوس ضعيفة خبيثة ، تألف منها ومن القصر الملكى والمعتمد البريطانى أحجار ثلاثة وضعت عليها (الوطنية المصرية) فى قدر فأحرقتها حتى أنضجتها ، وخرجت هذه الوطنية المصرية من هذه النار صافية كالذهب .

شهد هذا الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية طائفة من الصحف الشعبية ؛ كانت كل واحدة منها تحمل فى طياتها من دلائل التجديد ما ينبيء بوضوح عن مستقبل حسن للصحافة من حيث هى .

وكان يشترك فى تحرير تلك الصحف الشعبية كثير من الشخصيات الكبيرة ، بعضهم من المصاحفين[1] — أعنى من غير المحترفين — أو رؤساء التحرير ، وبعضهم من المنقطعين فعلا لتحرير هذه الصحف . وكانت الفئتان — فئة المصاحفين وفئة المحترفين — تجاهدان جهادا عظيما ، فى الميدان السياسى تارة ، والميدان الثقافى تارة أخرى .

وعلى الرغم من أن قانون المطبوعات كان لا يزال قائماً إلى تلك الفترة ، فإن الصحف المصرية كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية أفضى بها إلى الدخول فى أدق المسائل السياسية ، وحملها مسئولية الفشل فى بعض المراحل التى مرت بها القضية المصرية ؛ ومن هنا أخذت هذه الصحافة على عاتقها مهمة الدفاع عن القضية

---

(١) المصاحف هو الكاتب الذى يوافى الصحيفة بمقالاته ومواده الصحفية بين حين وآخر دون أن يكون من أعضاء أسرة التحرير فيها .

الوطنية أولا ، والدفاع عن الدستور المصرى ثانياً ، والعمل على إكمال النقص الذى بدا فيما حصلت عليه الأمة من استقلال آخر الأمر .

(وبعد) فقد كان من أولى صحف الطور الذى نتحدث عنه :

صحيفة الأخبار :

احتجبت صحيفة (الشعب) ومعها كثير من الصحف المصرية مدة خمسة أعوام ، هى أعوام الحرب العظمى ، وعلى أثر ذلك نشبت الثورة المصرية الكبرى ، وارتفع صوت مصر بطلب الاستقلال. وإذ ذاك عادت بعض الصحف للظهور من جديد ، ونشأت صحف لم يكن لها من قبل وجود ، وكان من هذه الأخيرة « صحيفة الأخبار » ومحررها الأول هو الأستاذ أمين الرافعى .

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ ، وصرحت منذ صدورها بأن الغرض الأول لها هو الدفاع عن القضية المصرية . وفى ذلك يقول أمين الرافعى :

« وليست القضية المصرية صعبة الدفاع ، ولا هى فى حاجة إلى الشرح الطويل ، فإننا لا نبغى سوى حريتنا . وما كان لأحد

أن يدعى شيئاً فى هذه الحرية التى هى ملك لنا وحدنا . ولو كان للإنصاف وجود فى المعاملة السياسية لما تردد مؤتمر الصلح عقب الحرب فى الحكم لنا . ولكن الذين أقاموا أنفسهم للفصل بين الشعوب خضعوا لمطالبهم ، وطرحوا الحق جانباً ، وانصرفوا إلى إرضاء بعضهم بعضاً . وهكذا لا يظهر الأقوياء لنا فى مظهر القوة إلا لأننا قد قبلنا الخضوع لهم ، وجثونا أمامهم . ولكنا إذا نهضنا جميعاً نلنا حريتنا ، ونجونا من أسرهم » .

وباختصار — كانت الغاية القصوى من صدور هذه الصحيفة — كما صرحت بذلك — هى الدفاع عن القضية المصرية وحدها على أساس الاستقلال التام . وفى ذلك يقول أمين الرافعى كذلك: « فنحن إذن لا نخدم فى الأخبار هيئة خاصة ، ولا نعبر عن رأى طائفة بالذات . وإنما نخدم أمة ، وندافع عن مبدأ واحد ، هو الاستقلال التام للبلاد المصرية » .

وقد كان لهذه الصحيفة التى يحررها أمين الرافعى شأن كبير ، فى المفاوضات الرسمية ، والمفاوضات غير الرسمية بين المصريين والإنجليز . ووقف أمين الرافعى وراء سعد زغلول منذ أول الأمر ، يشد أزره فى هذه المفاوضات ، ويعمل على حماية وحدة الأمة حتى لا تحدث فيها ثغرة ينفذ منها العدو ؛ لهذا كان

لأمين الرافعى فى صحيفة الأخبار مواقف مشهورة من أجل الدستور ، والدفاع عن الحياة النيابية السليمة فى فترة مظلمة كانت مصر فى أثنائها — كما قلنا — كرةً تتلقفها جهات ثلاث :

أولاها — جهة القصر الملكى .

والثانية — جهة الوزارة .

والثالثة — جهة المندوب السامى البريطانى .

وكل واحدة من هذه الجهات تجر الدستور إلى ناحيتها ، وتحاول ألا تكون فيه مادة متعارضة تعارضا واضحا مع مصلحتها .

وافتتح البرلمان فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ واقترن ذلك بفوز (الوفد) بأغلبية ساحقة جعلت من حق سعد زغلول أن يؤلف الوزارة . وحينئذ وضعت البلاد فى مأزق لا تحسد عليه من وجهين :

الأول — اجتماع الزعامة الشعبية ورياسة الحكومة المصرية فى يد واحدة هى يد سعد زغلول ، وكان من رأى المفكرين الأحرار أن يكتفى سعد بالزعامة الشعبية،ويقيم من نفسه حارسا على الحياة النيابية ، ورقيبا على تصرفات الحكومة

والثانى — ضيق أصحاب المناصب المرموقة فى الحكومة ،

وضيق السياسيين الذين تربوا فى مدرسة الوظائف بالحياة النيابية الجديدة .

وبسبب هذين العاملين السابقين تعرضت الحياة النيابية الجديدة لمحن شديدة : « فمن تأجيل وتعطيل وحل وتعديل لنظام الانتخابات على غير الطريق الدستورى السليم ، إلى تعرض للحقوق والحريات على وجه لا يرضى الحق ولا العدالة ولا الضمير . ثم لا يقل عن كل ذلك سوءا التسليم للسلطات الإنجليزية بما تريد حتى لقد أصبحت تلك السلطات فى النهاية هى الحكم بين المصريين » .

فكيف كان موقف « الأخبار » من هذا البرلمان الجديد ؟

لقد كان أمين الرافعى ينتظر من هذا البرلمان : أن ينجح فى هذه الأمور :

أولا — فى حل مشكلة المفاوضات بما يحقق أمانى البلاد .

ثانياً — فى حل مشكلة السودان ، وقد أصرّت مصر يومئذ على أن السودان جزء منها وأصر الإنجليز على فصل السودان عنها .

ثالثاً — فى الدفاع عن الحريات العامة .

رابعاً — فى إعادة النظر فى جميع القوانين التى أصدرتها السلطة العسكرية فى غيبة الدستور المصرى .

غير أن الوزارة الشعبية برياسة زغلول لم تكن تستطيع أن تصنع المعجزات ، بل إن زغلولاً نفسه كان مفيدا بالنظرة الواقعية للأشياء . ومن هنا اتسعت هوة الخلاف بين الصحافة والحكومة . بل من هنا وقعت بين سعد زغلول وأمين الرافعى خصومة عنيفة ، وذلك منذ خطب سعد خطبة فهم منها أمين أن سعداً أصبح يقبل استئناف المفاوضات دون أن يفكر فى (تعديل الأساس) الذى ينبغى أن تقوم عليه هذه المفاوضات ، وهو هنا إلغاء الحماية البريطانية ، ورفع الأحكام العرفية ، وقبول الإنجليز للتحفظات المصرية ؛ وكلها أمور قال بها سعد قبل تولى الحكم ، ثم ظهر من خطبه وأحاديثه أنه أخذ يعدل عنها بعد ذلك . وبحسبنا ذلك فى الكلام عن « الأخبار » لننتقل منها إلى الكلام عن :

صحيفة السياسة :

تألف حزب الوفد المصرى برياسة سعد زغلول للمطالبة بحق مصر فى تقرير مصيرها بعد الحرب العظمى . وتساءل الناس يومئذ — ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل — عما إذا كان الوفد قد رسم لنفسه خطة ما إذا حدث أن الحظ أخطأه وأخفق فى تحقيق مطالب الأمة . وذهب هيكل يعرض هذا السؤال على

أستاذه أحمد لطفى السيد. فأجابه هذا بقوله : إن الوفد ذاهب إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام ، فإذا أجيب إلى طلبه فذاك ، وإلا فسيذهب حسين رشدى وعدلى يكن إلى لندن ؛ لمطالبة الحكومة الإنجليزية بما ترجوه الأمة .

ومنذ ذلك الحين حدث انقسام كبير فى صفوف المصريين : فريق يرى أن سعد زغلول — وهو الوكيل المنتخب فى الجمعية التشريعية وبيده توكيل عن الأمة — أحق بأمر المفاوضات فى أمر هذه القضية . وفريق آخر يرى أن من حق الحكومة المصرية أن تتولى بنفسها المفاوضات مع الحكومة البريطانية . وقد كان على رأس الحكومة المصرية إذ ذاك « عدلى يكن » - وهو الوكيل المعين لا المنتخب فى الجمعية التشريعية ، ثم هو رجل مشهود له بالكفاية والحرص كل الحرص على الكرامة الوطنية .

وأخيرا وبعد لأى صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو التصريح الذى اعترف باستقلال مصر . غير أن سعد زغلول - وكان غائبا عن بلاده فى المنفى فى ذلك الوقت — وصف التصريح بأنه « نكبة وطنية » ، ووصف الاستقلال لذى أتى به التصريح بأنه استقلال مزيف .

ومهما يكن من شىء فقد ترتب على هذا التصريح أمور منها :

النظر فى أن يكون لمصر دستور تحكم به نفسها بنفسها . وصدر هذا الدستور بالفعل وذلك بعد عرضه على حكومة حسين رشدى . وعلى أثر ذلك ظهرت فكرة تهدف إلى تأليف حزب جديد أطلق عليه اسم « حزب الأحرار الدستوريين » يكون برياسة عدلى يكن ، وينضم إليه جميع الأعضاء الذين اشتركوا فى وضع الدستور . وتم الإعلان عن هذا الحزب فى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وصدرت صحيفة السياسة لمحررها محمد حسين هيكل معبرة عن آراء هذا الحزب يومئذ .

ومضت صحيفة السياسة ، تدعو إلى احترام الحرية ، وإلى العدالة الاجتماعية ، وإلى التمسك بالوحدة القومية ، فى الوقت الذى طفقت فيه صحف الوفد تشكك القراء فى نيات هذا الحزب ، وتمعن فى ذلك إلى حد أن وصفته بالخيانة الوطنية . ومن ثم خاض هيكل وأصحابه معركة الصحافة الحزبية ، وذلك ضد الأغلبية الوفدية . وناهيك بها معركة قوية بين نبى الوطنية سعد زغلول ، والذين خرجوا عليه ، وكفروا بالأمة وهم الأحرار الدستوريون !

وكان من نتائج ذلك ، انه لم يمض على إصدار صحيفته أكثر من تسعة عشر يوما حتى اغتيل اثنان من رجال الحزب الذى

تنطق باسمه هذه الصحيفة ، وهما حسن باشا عبد الرازق ، وإسماعيل بك زهدى .

وإذ ذاك انبرى أحد محررى السياسة ـ وهو الأستاذ توفيق دياب ـ يكتب مقالاً عنيفاً بعنوان « أنتم قتلة الوطن »، حمل فيها حملة شديدة على الوفديين ، ورماهم بتحريض الشباب البرىء على ارتكاب جرائم القتل على هذا النحو .

ومن ذلك الوقت بدت « السياسة » وكأنها صحيفة الطبقة المعروفة بحرية التفكير ، وبدت صحف « الوفد المصرى » وكأنها صحف الغوغاء والعامة ، وهم الأكثرية الساحقة فى جميع الشعوب .

ومن أجل هذا رأينا نخبة من الشباب المثقف يهوى صحيفة السياسة ، ويريد أن يشارك فى تحريرها كذلك . ومن هؤلاء على سبيل المثال : طه حسين ، ومحمود عزمى ، وسيد كامل ، وتوفيق دياب ، وعبد القادر المازنى ، وعبد العزيز البشرى ، وعبد الله عنان وغيرهم كثيرون .

وكان أكثر هؤلاء من تلاميذ « الجريدة » الذين نشأوا فى رحابها وتغذوا بلبانها ، وكانت لهم مشاركة فى نشاطها السياسى ونشاطها الثقافى ، وهكذا ورثت « السياسة » عن الجريدة أسلوبها فى التعمير وأسلوبها فى التفكير ، كما ورث « حزب الأحرار الدستوريين »

عن « حزب الأمة » القديم اعتداله ونظرته الواقعية للأمور . وكل هذه أشياء باعدت بينها وبين عقلية الجماهير ، ومن هنا كان على « السياسة » أن تصمد لطغيان هذه الجماهير ، ولكنها كانت تنتصر فى النهاية على كل عقبة فى الطريق .

أراد سعد زغلول أن يجر هيكلا إلى المحاكمة ، بحجة أنه أهان البرلمان فى مقال له بعنوان « حزب الستمائة » . وهو مقال حمل فيه هيكل على الأعضاء الذين طلبوا رفع المكافأة البرلمانية إلى ستمائة جنيه فى السنة ، ونوقش هيكل فى مقاله وبرأته المحكمة .

وسعى سعد زغلول مرة أخرى فى محاكمة هيكل من أجل مقال له بعنوان « هلموا ياأنصار الحرية فادفعوا العدوان عن الحرية » ، وأجرى له تحقيقا اتهم فيه بالدعوة إلى قلب نظم الحكم فى مصر . ومع أن هيكلا لم يتراجع عن كلمة واحدة مما جاء فى هذا المقال فإن المحكمة برأته وأفرجت عنه .

وأخيراً حوكمت « السياسة » فى أخطر قضية لها فى حياتها ، وهى القضية المعروفة « بقضية نزاهة الحكم » .

قضية نزاهة الحكم :

بدأت السياسة حملة قوية على أحد الوزراء فى وزارة عبد

الفتاح يحيى - كان قد اتخذ من الحكم أداة لتحقيق المنافع الشخصية
وبدأ التحقيق مع الدكتور هيكل بوصفه محررا لهذه المقالات ،
وأثار التحقيق مع كبار الساسة فى أثناء ذلك انتباه الرأى العام،
فوقف يرقب ما ينتهى إليه فى هـــذه المسألة الهامة وطال هذا
التحقيق، وانتهى كذلك ببراءة « السياسة » وبراءة محررها، وكان
يوما مشهورا من أيام الشعب، يذكر باليوم الذى نظرت فيه قضية
التلغرافات للسيد على يوسف صاحب المؤيد - مع الفارق الكبير
بينهما : فقضية التلغرافات كانت بين صاحب المؤيد وجبار الاحتلال
البريطانى وهو اللورد كرومر . فى حين أن قضية نزاهة الحكم ،
كانت بين محرر السياسة والحكومة المصرية فى موضوع مس قلوب
المصريين وهز مشاعرهم إلى حد كبير وهو موضوع نزاهة الحكم .

السياسة الأسبوعية :

وفى شهر أبريل سنة ١٩٢٦ بدا لأصحاب « السياسة » أن
ينشئوا أختا لهذه الصحيفة، وسموها «السياسة الأسبوعية» وألقوا
عليها عبء النشاط الثقافى والاجتماعى ، وقصروا الصحيفة الأولى
على النشاط السياسى ،

وشارك الدكتور هيكل كذلك فى « السياسة الأسبوعية » ، فأخذ

يكتب فى الاتجاهات الفكرية والأدبية والنقدية ، ونشر فيها فصولا من كتبه « ثورة فى الأدب » و « فى أوقات الفراغ » و « حياة محمد » .

ولا يسع مؤرخ الصحافة إلا أن ينظر إلى صحيفة السياسة ، على أنها تعتبر بحق « رائدة » الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية .

فإذا ذهبت تسأل عن سبب ذلك ؛ وجدت الإجابة فى أمور كثيرة ، منها على سبيل المثال :

« أولا » — إن صحيفة السياسة كانت من أكثر الصحف المعاصرة لها استخداماً لكبار الكتاب والمفكرين، وإفساحاً لهم فى مجال الكتابة فيها على اعتبارهم « مصاحفين » لا « صحفيين محترفين » ؛ ولذلك حرصت السياسة على استكتاب الأساتذة : عبد القادر المازنى ، وعبد العزيز البشرى ، وطه حسين ، وعلى عبدالرازق وغيرهم .وقد استطاع هؤلاء الكتاب - ومعهم الدكتور محمد حسين هيكل أن يخلقوا ثورة فى الصحافة المصرية من الناحيتين الأدبية والفكرية ؛ وذلك بما نشروا فى صحيفة السياسة الأسبوعية - بنوع خاص - من المقالات الثورية فى عالم الأدب والاجتماع والتاريخ والفلسفة . ويحسب القارىء أن نذكره هنا بمقالات

الأستاذ على عبد الرازق التى جمعت فيما بعد فى كتاب : « الإسلام وأصول الحكم » ، وهو الكتاب الذى ناقش فكرة الخلافة الإسلامية، وأهاج عليه الرأى المحافظ فى مصر والشرق . وحسب القارىء أن يذكر كذلك بأن صحيفة السياسة هى التى حمت الدكتور طه حسين من بطش الحكومة بعد نشره كتاب : « الشعر الجاهلى » . بل حسب القارىء كذلك أن نذكره بمقالات المازنى وهى عبـــارة عن قصص فى إطار مقالات كانت نوعاً جديداً فى فن المقال من حيث هو . ثم حسب القارىء أخيراً أن نذكره بالمقالات النقدية الاجتماعية التى كتبها الأستاذ عبد العزيز البشرى ، وجمعت بعد ذلك فى كتاب عنوانه : « فى المرآة » ، وفيه صور كاريكاتورية إقليمية لكثير من الشخصيات البارزة فى الأمة المصرية كانت هى الأخرى لوناً جديداً من ألوان المقال .

« ثانياً » — من الأمور التى جعلت من صحيفة السياسة رائدة ومبشرة بالعهد الجديد فى الصحافة قدرتها الفنية التى مكنتها من التنويع فى فنون المقال ، ومن الإكثار والإجادة لفنون صحفية أخرى ؛ مثل فن التحقيق الصحفى ، وفن الحديث

الصحف، وفن الماجريات[1] وخاصة الماجريات البرلمانية التى كان يتولى تحريرها الدكتور محمود عزمى. وتلك كلها عناصر للتجديد لم تتوفر لصحف أخرى.

« ثالثاً » — يضاف إلى ما تقدم عناية « السياسة » كذلك بالمظهر الخارجى لأسرة التحرير. والحق أن هذه الصحيفة تعتبر من أولى الصحف المصرية عناية بمندوبيها ومحرريها ؛ تعنى بهم من ناحية المظهر، وتمنحهم المال الذى يتجملون به فى الحفلات الرسمية وغير الرسمية حتى يتمكنوا من غشيان هذه المجالس ومن الحصول على ما يهم الصحيفة ؛ من أخبار المجتمع المصرى على اختلاف طبقاته.

ولم تقف عناية الصحيفة بمحرريها إلى هذا الحد حتى وجدناها تقسمهم إلى أقسام : فتجعل بعضهم لأمور السياسة، وبعضهم لأمور الاقتصاد، وبعضهم للأدب والفكر والفن وهكذا. وأخيراً وجدنا لهذه الصحيفة عناية كبيرة بعنصر « الصورة » فى الصحافة، وتقديراً كبيراً لقيمتها الإخبارية.

---

(١) الماجريات : جمع ما جرى وهى مؤلفة من كلمتين هما : ما وجرى ويقصد بها فى الصحافة إلى المناقشات البرلمانية أو القضائية أو الدولية أو الدبلوماسية.

من اجل هذا وذاك نستطيع نحن أن ننظر إلى الأستاذين حافظ عفيفي، ومحمد حسين هيكل - وهما المهيمنان على هذه الصحيفة - على أنهما الأستاذان الحقيقيان للمدرسة الحديثة في الصحافة.

والآن ندع صحافة الأحرار الدستوريين لنأخذ في الحديث عن صحافة الوفد، ومن أهم صحف هذا الحزب «البـــلاغ» ثم «كوكب الشرق». وسنكتفي بالكلام عن الأولى على سبيل المثال:

صحيفة البلاغ:

لم يكن للوفد المصرى صحف رسمية خاصة به، بل كان يدافع عنه وعن القضية الوطنية رجل واحد فى أول الأمر - هو أمين الرافعى - فى صحيفة الأخبار». ثم تولى الدفاع عنه رجل آخر هو عبد القادر حمزة فى «الأهالى».

وبقى الحال على ذلك حتى فكر الوفديون فى أن تكون لهم صحيفة خاصة بهم كما أن للأحرار الدستوريين صحيفتهم الخاصة بهم كذلك. ومن ثم صدرت «البلاغ» لمحررها الأستاذ عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣، وكان من أسرة التحرير فى هذه الصحيفة رجال لهم شهرتهم فى الميدانين: السياسى والثقافى. ومن هؤلاء: الأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ أحمد حافظ

عوض صاحب جريدة « كوكب الشرق » فيما بعد .

والحق أن كلا من هذين الرجلين قام بالدور الذى قام به الكتاب الرواد فى صحيفتى : « السياسة اليومية ، والسياسة الأسبوعية ». وكما كان كتاب صحيفة السياسة طلائع النهضة الفكرية الحديثة فى مصر والشرق، فكذلك كان الأستاذ عباس محمود العقاد بوجه خاص من أولئك الرواد الذين لهم فضل كبير على الأدب والفكر فى مصر والشرق . ونعود إلى صحيفة البلاغ فنقول: إن من السهل علينا أن نتصور الخصومة التى نشأت بينها وبين صحيفة « السياسة » فى ذلك الوقت . وقد كانت خصومة عنيفة كل العنف بين صحيفتين كبيرتين بل معسكرين عظيمين ، هما المعسكر الذى تمثله السياسية صحيفة الاقلية ،والمعسكر الذى تمثله «البلاغ » صحيفة الأغلبية . ومن أجل هذا كان طبيعياً أن يصبح أسلوب الأخيرة، وهى : « البلاغ » من الخشونة والتجريح والاعتداء بالدرجة التى تلائم قوتها ، وتتفق وسطوتها فى المجال الشعبى .

أما أسلوب الصحيفة الأولى ـ وهى السياسة ـ فكان أدنى إلى العفة والنزاهة ، لأنها تعبر عن الأقلية ، ولأن أصحابها كانوا حريصين على أن يظهروا أمام الجمهور بمظهر السمو فى النقد والزهد فى المهاترة .

وصاحب « البلاغ » ـ وهو الأستاذ عبد القادر حمزة ـ شاب من الأذكياء ، تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٠٣ ، وكان كالأستاذ أمين الرافعى ـ يكتب لبعض الصحف وهو طالب فى الكلية . ومن تلك الصحف التى كان يكتب لها صحيفة « الجريدة » ، وعن طريق هذه الأخيرة تعرف بالأستاذ أحمد لطفى السيد ، وقد رشحه هذا الأستاذ ليكون رئيساً لتحرير صحيفة « الأهالى » التى صدرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٩١٠ . ثم انتقلت صحيفة « الأهالى » من الإسكندرية إلى القاهرة ، وذلك فى سنة ١٩٢١ ، والحركة الوطنية فى أوجها . ومنذ يومئذ مالت « الأهالى » من تلقاء نفسها إلى الدفاع عن سعد زغلول ، وتعرضت فى سبيل ذلك للتعطيل تلو التعطيل ، مما اضطر الأستاذ عبدالقادر حمزة فى النهاية إلى تركها والكتابة فى صحيفة « المحروسة » . وبقى يكتب فيها إلى أن تنبهت لها الحكومة وعطلتها هى الأخرى ، فلم يجد عبد القادر حمزة أمامه إلا طريقاً واحداً يسد به نهمه الشديد للصحافة . وهذا الطريق هو إصدار المنشورات الحرة بين حين وآخر ـ لا لشىء إلا لأن هذه المنشورات لا تخضع للرقابة . ومع هذا وذاك فلم تمكنه الحكومة من المضى فى هذه الطريقة .

وأخيراً استقر رأى الأستاذ حمزة على استئجار صحيفة :

« الأفكار » ، للاستعانة بها فى تقوية الحركة الوطنية ، والوقوف وراء سعد زغلول فى هذه الحركة القوية . واستمر يكتب فيها إلى اليوم السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٣ ، فقد حصل بعدئذ على تصريح بإصدار صحيفة « البلاغ » ، التى صدر العدد الأول من أعدادها فى الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٣

وفى هذه الصحيفة الأخيرة أخذ المحرر فى محاربة الإنجليز ، وكان سعد زغلول من أشد الناس إعجاباً بطريقة الأستاذ حمزة فى التحرير ، وكان لهذا المحرر الكبير عمود يومى فى صحيفة « البلاغ » على شكل العصا ، حقق له جميع الخصائص الفنية التى لهذا النوع من أنواع التحرير الصحفى - وهو العمود : ومن هذه الخصائص أن يشغل حيزاً معيناً ويتخذ عنواناً معيناً ، ويحمل توقيعا معينا .

غير أن الإنجليز لم يطيقوا صبراً على بقاء هذه الصحيفة الوطنية الصريحة ، فعملوا على تعطيلها ، وقبضوا على محررها ، واعتقلوه فى السادس من شهر مارس سنة ١٩٢٣ ، ثم أفرجوا عنه وعن صحيفته فعادت إلى الظهور فى الثامن عشر من شهر يونيه من نفس السنة .

وكما كانت هناك صحيفة باسم: «السياسة الأسبوعية» فكذلك حرص الأستاذ عبد القادر حمزة على أن يكون هناك ما يسمى «بالبلاغ الأسبوعى»، وفيه عنى الرجل بما عنى به الدكتور حسين هيكل من تسجيل دقيق للحركة الأدبية، وعرض لمشكلات النشاط الفكرى والفنى. ومن هنا يجب أن ننظر إلى «البلاغ الأسبوعى» نظرتنا إلى «السياسة الأسبوعية» من حيث أنهما قادتا الحركة الفكرية، وكان لهما الفضل كل الفضل فيما نعمت به مصر من نهضة فكرية، ونهضة سياسية ودستورية واقتصادية واجتماعية شملت فيما شملته كذلك الحركة النسائية وغيرها من الحركات التى بنت المجتمع المصرى الحديث، وبنت العقل المصرى الحديث.

كل ذلك كان نتيجة فى الواقع لما نعمت به مصر بعد حصولها على دستور سنة ١٩٢٣، من استقرار نسبى مكنها من أن تخطو خطوات موفقة فى المجالين الفكرى والأدبى، وجعل لها هذه المكانة التى تزهو بها فى العالم العربى إلى اليوم.

* * *

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى الاتجاهات الثقافية والأدبية فى الصحافة المصرية. فهنا يصح أن نشير إشارة سريعة إلى بعض المجلات التى ظهرت فى هذا الميدان.

والذى نعلمه مما سبق أن « روضة المدارس » التى صدرت رسمية فى السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠ هى الأم الأولى للمجلات الأدبية فى البلاد المصرية .

والذى نعلمه كذلك أن الأم الثانية لجميع الصحف الأدبية فى مصر هى « الجريدة » التى قام بتحريرها أحمد لطفى السيد وتلاميذه . ومنهم : حسين هيكل ، وعبد القادر حمزة ، وأحمد حافظ عوض ، وطه حسين ، وعبد القادر المازنى ، وعباس العقاد وغيرهم .

ولقد كانت البنت البكر لهذه الأم الثانية هى صحيفة « السياسة الأسبوعية » . وقد رأينا كيف عنيت بالتجديد فى الأدب والفكر والنقد جميعاً . وكان لهذا التجديد آثاره الطيبة فى كل بلاد العالم العربى .

ولما كان للسوريين أكبر الأثر فى الصحافة اليومية فى مصر، فكذلك كان لهم فضل كبير على الصحافة الأدبية فيها . وبحسبنا أن نشير هنا إلى مجلة « المقتطف » التى صدرت ببيروت سنة ١٨٧٦ ثم انتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ ، وتعتبر من أقدم المجلات العلمية فى الشرق . وأصحابها الدكاترة : يعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وفارس نمر .

ثم يحسبنا كذلك أن نشير إلى مجلة « الهلال » التي صدرت في مصر سنة ١٨٩٢ وصاحبها المؤرخ الكبير والعالم المشهور جورجي زيدان . ثم مجلة « البيان » الصادرة في القاهرة سنة ١٨٩٧ لصاحبها إبراهيم اليازجي .

إن الذي لا شك فيه أن لهذه المجلات السورية الكبيرة دينا في عنق الثقافة المصرية الحديثة ، وهي الثقافة التي تعترف بالفضل لهذا العنصر السوري بالذات ، وما زالت تعترف به إلى اليوم .

غير أن هذه المجلات الأدبية سورية ومصرية سرعان ما اختفت من الميدان الأدبي جملة ، وخلا الجو إلا من المجلة العتيدة التي تشبه صحيفة « الأهرام » في حياتها الطويلة - ونعني بها « الهلال » ، وهي الصحيفة التي تؤدي عملها الثقافي والأدبي والفكرة بنجاح كبير إلى اليوم .

خاتمة

رأيت أيها القارىء كيف أن صحافتنا المصرية بدأت رسمية، ثم لم تلبث أن أصبحت شعبية . وذلك منذ ولى البلاد أمير أحاطت به ظروف سيئة هو اسماعيل .

كما رأيت أيها القارىء أن الصحافة المصرية مرت فى مائة عام بأطوار أربعة كانت فى طورها الأول (١٨٢٨ — ١٨٧٦) تعنى عناية كبيرة بأمر الثقافة .

وحين دخلت الصحافة المصرية طورها الثانى (١٨٧٧ — ١٨٨٢) اتخذت لنفسها صبغة سياسية وربما كان من أسباب ذلك وجود السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر قبل هذه الفترة بقليل ؛ يمهد الأذهان للثورة ، ويغرس فى التربة المصرية بذور الحرية . وفى الوقت الذى وجد فيه السيد جمال الدين كانت الحرب الروسية التركية قد بدأت ، وفتحت الباب للصحافة الشعبية — كما قلنا — لكى تخوض فى السياسة وذلك برضى من الوالى ومن الحكومة .

ثم فى الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية (١٨٨٣ — ١٩١٩) استمر لهذه الصحافة ما كان لها من الصبغة السياسية ،

وزادت عليها صبغة أخرى تحررية ، وظهرت هذه الأخيرة بوضوح فى ميدان التفكير السياسى ، وميدان التفكير الخلق والاجتماعى ، وميدان التفكير الأدبى آخر الأمر ، وتجلت هذه الصبغة التحررية بوضوح فى صحف المؤيد واللواء والجريدة .

ثم فى الطور الرابع والأخير من الأطوار التى تحدثنا عنها (١٩١٩ — ١٩٢٨) وهو الطور الذى جاء نتيجة للثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ، واشتغل المصريون فى أثنائها بأمرين هما : القضية المصرية ، والحياة النيابية ـ كانت الصحافة المصرية مصبوغة بهاتين الصبغتين ، كما يظهر لنا ذلك فى صحافة أمين الرافعى ، ثم فى صحافة الوفد المصرى ، وصحافة الأحرار الدستوريين .

مرت بمصر كل هذه الظروف ، وهى وإن كانت ظروفا سيئة ، ومحناً قاسية ، إلا أنها عادت على الصحافة المصرية ذاتها بالقوة والمنعة ، وبالقدرة الكاملة على المقاومة . وبها اشتدت عضلات الصحافة المصرية فى الطورين الثالث والرابع من الأطوار التى أشرت إليها ؛ حتى أصبحت صحافة شعبية ممتازة بالمعنى الصحيح ، وكانت عنايتها إذ ذاك محصورة (فى المقال الصحفى) ، أو بعبارة أخرى ، كان (فن المقال) هو الأداة الوحيدة

فى يد الصحافة ، أو السلاح الوحيد لها فى ميدان الكفاح من أجل الوطن وقضايا الوطن !.

وباختصار بلغت هذه الصحافة المصرية حد النضوج والكمال فى الطورين الثالث والرابع من أطوار حياتها التى شرحناها فى هذا الكتاب .

أجَل بلغت حد النضوج والكمال إذ ذاك ؛ لأنها استطاعت فى الواقع أن تقوم بكل ما يجب عليها من واجبات نحو الأمانى الوطنية ، والكرامة الوطنية ، حتى لقد لفتت إليها أنظار المؤرخين من العرب والأوروبيين على السواء ، وكان من نتيجة ذلك أن ذهب بعض أولئك المؤرخين يطلقون على الحركة التى قامت بها الصحافة فى هاتين المرحلتين السابقتين اسم « الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية » . ولذا سنفرد هذه التسمية بهذه الكلمة التى نختتم بها الكتاب :

الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية :

نفهم مما سبق أن هذا الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية إنما يشمل مرحلتين من مراحل الصحافة المصرية ؛ هما المرحلة الثالثة ، والمرحلة الرابعة .

فمنذ الاحتلال البريطانى — على أقل تقدير — والصحافة المصرية تدرك أن عليها واجبات وطنية لابد لها من القيام بها مهما كلفها ذلك من جهد أو بذلت فى سبيله من تضحية .

كان على الصحافة المصرية (أولا) أن تدافع عن المصريين فى الميدان السياسى ، وأن تتصدى لمقاومة المحتلين بكل ما تملك من وسائل ، وذلك حتى يختصر المحتلون مدة بقائهم فى مصر ، ويرحلوا عنها فى أقرب وقت .

ثم كان على الصحافة المصرية (ثانيا) أن تدافع عن المصريين فى المجال الدينى . فقد جاء الاحتلال يبذر بذور التفرقة الدينية بين عنصرى الأمة ؛ وهما المسلمون والأقباط ، ثم لم يكفه ذلك حتى أخذ يرمى الدين الإسـلامى — وهو دين الأغلبية الساحقة من أبناء هذه الأمة — بأنه دين لا يتفق مع الحضارة الحديثة، وأنه دين كان يصلح للمسلمين منذ أكثر من ألف سنة . أما الآن فلم يعد يصلح لهم أو يتفق مع زمانهم . ثم لم يكتف الاحتلال بذلك حتى مضى يتهم المسلمين أنفسهم بالتعصب الدينى الذى أضر بمصلحة الأجانب المقيمين بمصر .

وفى هذا الميدان من ميادين الكفاح ضد الاستعمار وقفت الصحافة وقفة عنيدة ، وأخذت تدافع عن الدين الإسلامى

بحرارة شديدة ، كما نفت عن المسلمين تهمة التعصب الديني ، وأمنت الأجانب المقيمين بمصر على حياتهم وأموالهم ، وبلغت الصحافة من كل ذلك ما تريد .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية ثالثة) — أن تهاجم سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال في مصر — وهي السياسة التي بناها على : تشجيع الكتاتيب ، والاكتفاء بها عن التعليم العالي ، بحجة أن البلاد لم ترق بعد إلى هذا المستوى . وإذ ذاك وقفت الصحافة المصرية تندد بهذه السياسة وتدعو إلى إنشاء الجامعة المصرية التي تم إنشاؤها بالفعل سنة ١٩٠٨ .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية رابعة) أن تقوم بإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم . فقد حرص هذا الاحتلال — كما قلنا — على غرس طائفة من الأخلاق التي تساعد على بقائه أطول مدة ممكنة . ومنها أخلاق الخضوع ، والاستكانة ، والرضى بالأمر الواقع ، وعبادة اليسالة ، وتقديس الأصنام ، ورفع الحكام إلى مرتبة الآلهة . وكان من خير من أبلى بلاء حسنا في ميدان الإصلاح الخلقي الأستاذ أحمد لطفي السيد في (الجريدة) .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية خامسة) أن تواصل الدفاع عن اللغة العربية،على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية التى يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية وعن الشخصية الأوروبية ، وأن تمد هذه اللغة بجميع المقومات التى لابد منها كى تعيش ، وتنمو ، وتتقدم ، وتضطلع بجميع الواجبات عليها نحو السياسة ، والثقافة ، والحضارة بمخترعاتها الحديثة ومبتكراتها الفكرية التى لا نهاية لها .

ثم إنه منذ فشل المصريون فى سياسة الاعتماد على تركيا ، وفشلوا فى سياسية الاعتماد على فرنسا ، وفشلوا فى سياسة الاعتماد على حكامهم من أبناء محمد على لم يبق أمامهم فى الواقع غير الاعتماد على سياسة جديدة ؛ هى سياسة إعداد الأمة المصرية من جديد ، وتزويدها بأدوات الاستقلال والنهوض . ولكن ماذا أريد بأدوات الاستقلال حينذاك ؟

إنها العلم ، والخلق ، والإيمان بالنفس ، والشعور بالكرامة ، والإحساس بالشخصية المصرية ، والعمل على حمايتها من الآفات التى منيت بها عبر القرون التى كانت مصر فى أثنائها خاضعة للسطان الأجنبى !!

وأخيراً كان على الصحافة المصرية من (ناحية سادسة)

أن تحمى ظهر الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ، وأن تحافظ ما أمكنها على ما جنته من ثمار هذه الثورة ، ومن أعظمها يومئذ ثمرة الإبقاء على وحدة الأمة ، والوقوف وراء المفاوض المصرى الذى يسعى فى الحصول على الاستقلال والحرية ، والوقوف كذلك وراء اللجنة التى تضع الدستور المصرى الجديد حتى يصبح دستوراً محققاً لمطالب الأمـــة ، ثم الوقوف أخيراً وراء البرلمان المصرى نفسه حتى يؤدى واجبه كاملا نحو الاستقلال والحريات ونحو العمل على إنهاض البلاد من كبوتها السياسية وكبوتها الاقتصادية .

* * *

قامت الصحافة المصرية بكل هـــذه الفروض والواجبات ، وذلك فى أثناء الفترة التى بدأت بالاحتلال البريطانى وانتهت بظهور الحيـاة النيابية السليمة ، وصمود رجل كأمين الرافعى فى الدفاع عنها بكل قوته . وذلك حتى مات فى سنة ١٩٢٧ ، وسبقه إلى الملأ الأعلى قطب الرحى من الحياة المصرية كلها فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحلها - ونعنى به سعد زغلول .

وتلك هى الإسباب التى من أجلها أطلق المؤرخون - كما قلنا - اسم (الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية)

على تلك الفترة . ومن هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال (ينج) فى كتابه عن مصر ، وتشارلز آدمز فى كتابه « الاسلام والتجديد » . وهما على حق فى هذه التسمية .

أما نحن فقد نظرنا إلى تلك الفترة من تاريخ صحافتنا على أنها « العصر الذهبى » لهذه الصحافة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

وفى ذلك ما يخالف الفكرة العالقة ببعض الأذهان من أن الصحافة المصرية فى عهد الاستعمار وبداية الاستقلال كانت صحافة هزيلة ، أو موصوفة بالضعف أو الركود أو الأهمال ونحو ذلك من الصفات .

وحسبك أيها القارىء أن توازن بين ماصنعته الشورى لمصر فى ذلك الوقت ، وما صنعته الصحافة لها فى نفس الوقت فستجد أن هذه الأخيرة وهى الصحافة أفادت الوطن أضعاف ما أفادته الشورى .

إن الشرط الوحيد لنجاح الصحافة فى مهمتها وقيامها بما يجب عليها فى قيادة أمتها إنما هو « الحرية » .

فبالحرية تستطيع الصحافة أن تعيش ، وبالحرية تستطيع الصحافة أن تبلغ فى ميدان الاصلاح كل ما تريد .